الفصل الأول

أعلى مراتب الكمال الخلقي الإنساني

إن الانفـراد بالكمـال الإنسـاني في أي جانب من جوانب الكمالات الخلقية يقتضـي أن يكـون صـاحبه هو ذلك النبي المبعوث بالرسالة العامة الخاتمة الجامعـة لكـل كمال ، إذ لا يتأتى هذا الانفراد إلا بالتحقق بهذه المرتبة التي تستلزم هذا الكمال بداهة ، فلا يتصور عنها غيره .

وإن لـم يكن له صلوات الله وسلامه عليه سوى مكارم أخلاقه الشاملة لكفت دليلا على أنه المثل الإنساني الأعلى الذي تصدر عنه جميع الفضائل الكاملة التي يمكن أن تصدر عن بشر أو يتصف بها .

وهـذا هو ما تدل عليه البديهيات العقلية ، ولكي نقررها ، نطرح هذا السؤال الذي لا يحتاج جوابه إلا إلى العلم الضروري البديهي :

من هو الذي ينفرد بأعلى مراتب الكمال الخلقي الإنساني ؟

إن الذي ينفرد بالنهاية في الكمالات الإنسانية يجب أن :

١- يبلغ الغاية القصوى للبشر في معرفة كمالات الخالق سبحانه وتعالى ، ومـا يليق به عز وجل ، وهذه المعرفة هي مصدر جميع الكمالات إذ من المحال أن يتحقق الإنسان بالخلق السوي الذي يسعده ويسعد البشر دنيا وآخرة ، مالم يعرف خالقه المعرفة الصحيحة ، ومعرفة الحق عز وجل لا تكون صحيحة إلا إذا كانت عن طريق الوحي الإلهي ، فتكون حينئذ طبقا لما عرف به الحق عز وجل نفسه . ومن المحال أيضا أن تتحدد المسئولية الأخلاقية تحديداً شاملا كاملا بدون هذه المعرفة وأن بلـوغ غايتها القصوى يستلزم الانفراد في جميع الكمالات التي وهبها الخالق سبحانه وتعالى للنوع الإنساني .

٢- أن يبيـــن للبشـــر جمـــيعا آداب معاملة الخالق سبحانه لتكون مصدرا للكمـــال فـــي العلاقات البشرية ، وأن يعرفهم بكل طريق يفضي إلى سعادتهم وصلاحهم ، فهو أحرص الخلق على إيصال الخير إليهم كما تقتضـــيه مرتبته ، ومعنى هذا أيضا أنه يجب أن يتحقق بأعلى مراتب العـــبودية لله عـــز وجـــل ، إذ من المحال أن يفصل للعالمين مراتب العبودية لله تعالى ويكون ناقصا في أية ناحية من نواحيها .

٣- لابـــد أن يفصـــل الحجـــب التي تحجب عن بلوغ مراتب الكمال طبقا لاستعدادات النفوس البشرية ، ويدخل في ذلك : بيان أوجه الزيف في العقـــائد المـــنحرفة التي تضلل البشر بقدر ما فيها من الزيغ ، ونسف القـــيم المـــزورة التـــي تتنافى مع مقتضيات الخلق القويم والصراط السوي.

٤- بيان جميع الأمور التي لا يتم الإيمان إلا بها ــ شعب الإيمان ــ ومن الجهـــة الأخـــرى يفصل الأمور التي تؤدي إلى مسخ النفوس البشرية وإلى فسادها مثل النفاق والشرك والكفر وكل ما يؤدي إلى انحطاطها حسا ومعنى .

٥- الإحاطة بطبائع النفوس البشرية لتقرير ما هو ملائم لاستعداداتها .

٦- تفصـــيل الجـــزاء الدنـــيوي والأخروي اللائق بكل مرتبة من مراتب الإنســـان ، وهذا يقتضي الإحاطة بكل ما يتعلق بمصير الإنسان دنيا وأخـــرى. كما يدخل تحته بيان العلاقة بين المعاني المجردة في الدنيا والجواهر المحسوسة في الآخرة .

كـــل هـــذا يقتضي الإحاطة بجميع حقائق الموجودات ، ولما أن هذه الإحاطة ليست إلا لله سبحانه وتعالى فإن تفصيل كمالات الألوهية وبيان كل ما يتعلق بـــالخلق في كل زمان ومكان لا يكون إلا بوحي إلهي يفصل الوجود كما هو عند الله عز وجل .

فالمـــثل الإنساني الأعلى الذي ينفرد بالنهاية القصوى في الكمالات الإنسانية يجب أن يكون :

١- رسولا نبيا لأن الوحي والتبليغ خاص بالرسول النبي .

٢- أن يكون صاحب شريعة جامعة لكل الكمالات الممكنة الصالحة لكل زمان ومكان وهي تتفجر من خاتم الكتب الالهية .

٣-يجـــب أن يكـــون خاتم النبيين ، فلا نبي بعده ، إذ لا معنى للنبوة بعد أن استوفت شريعته الحكمة من إرسال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وبعد أن حملـــت رسالته كل مؤمن به مسئولية تبليغ الدعوة إلى من لم تصل إليه ، فأتباعه المهتدين بهديه يقومون بما كان يقوم به الأنبياء.

٤- أن تكون معجزته الكبرى العامة للخلق جميعا : هذا الكتاب الإلهي المحيط بتفصيل كل ما يتعلق بالربوبية والعبودية ومصائر المخلوقات.

٥- أن يقوم بتفصيل ما جاء في ذلك الكتاب الإلهي وتبيانه للعالمين .

٦- لابد أن تكون جميع أقواله وأفعاله بالغة نهاية كل كمال إنساني ممكن.

٧- لمـــا أن الكلام صفة [١]للمتكلم ، ولما أن مرتبته جامعة فكلامه يجب أن يكون جامعاً طبقا لمستوى مرتبته ، فينطق بجوامع الكلم .

---

[١] ترتـــبط اللغـــة عمومـــا فـــي جميع صورها بالأخلاق وممن اهتموا بدراسة هذا الموضوع Stevenson, Charles Lo – Ethics and Language.

٨- لابـــد مـــن أن تصـــلنا جميع شئونه ، إذ أن هذه المرتبة تقتضي الشمول والعموم ، فمن لوازمها الثبات لا الزوال ، فإن زالت كان هذا دليلا على أنها مرتبة محلية خاصة بمكان معين وزمان معين .

فمن هذا الذي كانت معجزته الكبرى كتاب الله عز وجل المفصل لجميع الكمالات ؟

من هذا الذي جاء مبينا ومفصلا لكتاب الله عز وجل : فعرف الخلق بما يليق بـــالله عـــز وجـــل ، وصـــحح عقائدهم في الألوهية وطهرها من كل زيغ ، وصحح عقائدهم في النبوات حتى يجتنبوا من يفتري على الله تعالى ويحذروا من الركون إلى من يضللهم ؟

مـــن هـــذا الذي بين للناس جميع الطرق المفضية إلى سعادتهم وحذرهم من جميع الطرق المفضية إلى شقوتهم ؟

مـــن هذا الذي فتح للناس كل مراتب الكمال الإنساني ليرتقي فيها كل بحسب استعداده ؟

من هذا الذي وضع الأسس اللازمة للتكامل النفسي ولتكامل المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان ؟

من هذا الذي نسف كل القيم المزورة التي تفضي إلى تعاسة الإنسان وضياع حقوقه وتضييعه لواجباته ؟

من هذا الذي أعلن الحقوق الكبرى للإنسان ؟

من هذا الذي حرر الفرد من العبودية لغير الخالق سبحانه ؟ فحرره من الذل والخوف . وحرر العقل من كل سلطان إلا سلطان الله سبحانه وتعالى ؟

من هذا الذي تواترت الأخبار بأنه قد بلغ الغاية القصوى في مكارم الأخلاق ؟

من هذا الذي سجل لنا معاصروه جميع أقواله وأفعاله التي تدل على أنه قد بلغ من الصفات المحمودة أتمها وأجملها وأعمها فشملت : العلم والحلم والصبر والسكينة ، والعدل والتواضع والعفو والعفة والجود والشجاعة والحياء والمروءة والصدق والوفاء والمودة والرحمة وكمال الأدب وحسن المعاشرة والهداية للخلق وحب الخير لكل مخلوق ، وإعطاء الحكمة حقها في سائر الأمور مما لا يستوفيه الحصر ، وكيف يحصر المرتبة من هو دونها ؟

لو قرأنا جميع كتب الأديان ، ولو تصفحنا جميع ما وصلنا عن رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، لما وجدنا غير فرد واحد اجتمعت فيه هذه الخصائص ، فرد واحد أعجز البشر بكتاب إلهي جامع لكل كمال ، فرد واحد جاء بشريعة مفصلة مبينة لهذا الكتاب الإلهي فجمعت كل كمال ثابت باق يمكن أن يطرأ على قلب بشر أو لا يطرأ ، فرد واحد هو :

خاتم النبيين والمرسلين محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه .

ولا يوجد كتاب سماوي قد دونه صاحب الوحي كما أنزل عليه وبتوقيف منه سوى القرآن العظيم ، فبلغنا كما أنزله الله عز وجل .

لقد ماتت جميع لغات الوحي ، ولم تبق منها لغة حية سوى لغة الوحي المحمدي يتحدث بها عشرات الملايين . لقد ماتت لغات الوحي السابقة للشريعة المحمدية لأن رسالات أصحابها خاصة ، وبقيت لغة الشريعة العامة الجامعة للكمالات ، لغة الشريعة الخاتمة العامة ، ليتم تبليغ الرسالة المحمدية إلى كل ركن من أركان المعمورة في عصر تيسرت فيه جميع وسائل الاتصال بين البشر .

عقيدة التوحيد القرآنية

هي مصدر كل كمال إنساني

إن الكمـــال الإنســـاني يصـــبح كلمة غير مفهومة عند من لا يدين بالرسالة المحمديـــة الجامعـــة ، وإن الإنسانية لتفقد معانيها حين تنقطع صلتها بالهدي والنور المحمدي .

ولـــو تتبعـــنا ما جاءت به عقيدة التوحيد القرآنية لوجدناها مصدرا لكل كمال إنساني ممكن : فمن لوازم عقيدة التوحيد القرآنية أنها : ـــ

١- هـــي الســـبيل لمعـــرفة الكمالات الإلهية التي تفتح للبشر أبواب الكمال المطلق.

٢- هي السبيل الوحيد لتكريم الإنسانية وتحرير العقيدة من الأوهام والخرافات والـــتزوير والضـــلال ، فهي التي تحول دون تردي البشر في أديان مجعولة يلجأون ويضطرون إلى خلقها لتنظيم وجودهم .

ومـــن لوازمهـــا تحرير العقيدة من نصب آلهة مجعولة يقيمها الفرد متى شاء ويلغيها متى شاء فيكون تمثيله لخالقه سبحانه تابعا لثقافته ، وتمثيله هذا إما أن يذهب به إلى حد الغموض الذي لا يعقل أو الإسفاف الذي تترفع عنه الكرامة البشـــرية إذ يقدس الإنسان مالا يصح تقديسه ويؤله مخلوقا عاجزا مثله : من حـــيوان أو نبات أو نهر أو أي مظهر طبيعي ، أو الكون كله أو الضمير أو الإنســـان أو الروح المطلقة الخ .. وبمقدار انحراف الفرد عن عقيدة التوحيد القرآنـــية يكـــون انحرافه عن الصراط المستقيم ، إذ طبقا لهذا الإله المجعول يضع قيمه وأخلاقه ، التي تحدد سلوكه وتصرفاته ، وطبقا لهذا الإله المجعول يحدد مستواه البشري ، وبقدر انحرافه عن هدى المثل الإنساني الأعلى يكون النقص في عقيدته .

٣- هي مصدر الحرية الكاملة للإنسان :

لا يمكـــن لوجود الفرد أن ينطلق الانطلاق الحر نحو كماله اللانهائي إلا إذا تحرر من كل قيد يعرقل انطلاقه أو يقيده ، ولا يتم هذا إلا إذا تحرر الفرد من عبوديـــته للمادة بأوسع معانيها : الشيء أيا كانت صورته : المال ، الأهل ، الحـــاكم ، المجـــتمع ، الخ .... وأيا كان انعكاسه وانطباعاته في نفس الفرد وعلى قدر هذا التحرر تكون الحرية .

فمـــن لـــوازم عقـــيدة التوحيد في الإسلام : التحرر من الآلهة المجعولة التي يخلقهـــا الإنســـان لنفسه ثم يقيد وجوده بها **(ليسَ كمثلهِ شيء)** ، ومن لوازمها الـــتحرر من الهوى أيا كان مصدره فلا يؤثر الإنسان هوى أي مخلوق على مرضـــاة خالقه (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) ، ومن لوازمهـــا ألا يبتغي الإنسان في جميع حركاته وسكناته سوى مرضاة الله عز وجـــل ، ومن لوازمها تحرير العواطف من الخوف إلا من الله تعالى ، ومن لوازمهـــا ألا يبتغي العزة إلا فيما شرعه الله تعالى : كل هذا تنطق به الكلمة الجامعـــة " لا إلـــه إلا الله محمد رسول الله " منها تتدفق جميع معاني الحرية الحقـــة التـــي قتل الناس أنفسهم في سبيل معرفتها ، ومنها تفيض أعلى ألوان الإنســـانية التـــي لا تعرف سوى التفاني في مرضاة الحق عز وجل ، ومنها يـــتدفق التحرر من جميع الطواغيت الظاهرة ومن الطواغيت الخفية المستترة التي تنصبها النفس في ميادين الهوى لتجري وراءها ، من هذه الكلمة الجامعة يـــتفجر النور الدافق الذي يطهر الإنسان من جميع عاهاته الباطنة التي توجه سلوكه وتتسلط على مشاعره وتملكها فتجعله يعيث فسادا في الأرض ، ومنها تتـــبع القـــوة الهائلة التي تحرره من معوقات نموه السوي وتمده بالطاقة التي يكـــافح بهـــا كل ما يعترض سبيله : إنها الميزان العدل لجميع أعمال البشر

ونواياهم " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله و رسوله ، فعنها تصدر القيم الثابتة الأصيلة التي ترسخ بها قواعد المجتمعات : أصلها ثابت وفرعها في السماء .

٤- هي السبيل إلى العدالة الحقة :

لا تتم العدالة الحقة ولا المساواة ولا الأخوة إلا بقدر تحقق الفرد بهذه الحرية الكبرى التي تصدر عن كلمة التوحيد ، وعلى هذا القدر تكون قوة تصرفاته وسلامتها ، وعلى هذا القدر تكون صحة علاقاته بربه وبنفسه وبغيره هذا هو أساس العدالة بأوسع معانيها ــ وقد بينت عقيدة التوحيد الحدود التي إذا تجاوزها الفرد فسدت قواه المكونة له ، ووجب حينئذ تطبيق التأديب المناسب له حتى لا يضل ويشقى ويجور على من حوله ، كما أحاطت عقيدة التوحيد القرآنية الفرد والمجتمع بالضمانات الكافية للحيلولة دون الانزلاق في مهاوٍ من الظلم ليس لها قرار .

٥- هي مصدر الرحمة الكاملة :

تكمل الرحمة في المخلوق على قدر كمال معرفته بالله سبحانه وتعالى وقد فتحت عقيدة التوحيد القرآنية أبواب جميع الكمالات أمام الإنسان ، إذ بينت للبشر المعرفة الواجبة بخالقهم . وهذه المعرفة من تمكن منها أصبح مصدر رحمة لنفسه ولغيره ، ولذا كان صلوات الله وسلامه عليه أوسع الخلق رحمة بالخلق ، و ناهيك برحمة من أنزل عليه الكتاب الجامع الفاتح لمراتب الاستعدادات الإنسانية أبواب معرفة الخالق سبحانه ، وإن أول ما يتلوه القارئ من آي الذكر الحكيم ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ منبع الكمالات الصادرة من واجب الوجود الذي وسعت رحمته كل شيء .

٦- **هي مصدر المسئولية الكاملة :**

لا معنى للمسئولية الكاملة بعيدا عن عقيدة التوحيد القرآنية . فالمسئولية الكاملة وعقيدة التوحيد القرآنية متلازمان . فالعقيدة حددت وضع الإنسان في الوجود ، وحددت كل نسبة ظاهرة أو خفية يرتبط بها الإنسان بنفسه أو بغيره، وإذ عرفت الإنسان المعرفة الصحيحة بخالقه ألقت عليه المسئولية الكاملة في جميع شئونه وحقوقه وواجباته ، وأي تكريم للإنسان مثل هذا التكريم ؟ أي تكريم مثل هذا الذي يرفع الفرد إلى مستوى الأمة القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، المتعاونة على البر والمجمعة على التخلص من الشر أينما كان ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ ٨ــ سورة المنافقون .

عقيدة التوحيد تنهى الإنسان عن أن يتصاغر ، أو يدخل في نفسه أنه غير مسئول عن غيره ، أو أنه يكافح بمفرده ، تنهاه عن هذا وتحمله مسئولية مقاومة الظلم فلا يخنع ولا يخضع ، كما تحمله مسئولية النصح لله ولرسوله وللمؤمنين . إنها تحمله المسئولية الكبرى مسئولية أداء تعاليم الإسلام كاملة غير منقوصة وتبليغها . (**اللهم فأشهد . فليبلغ الحاضر منكم الغائب**) .

هذه هي المسئولية الكاملة : التي جعلت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول : لو ضاع عقال بعير بالعراق لسئل عنه عمر ــ هذه هي المسئولية الكاملة التي جعلته وهو خليفة يحمل الدقيق والسمن على عاتقه وهو يقول من يحمل عني ذنوبي يوم القيامة ! ولا يترك أهل بيت محتاجين حتى يطعمهم ويسرهم ــ هذه هي المسئولية التي جعلت أمين الأمة أبا عبيدة عامر بن الجراح لا يقتني سوى ما يتوضأ به أو ينام عليه . هذه هي المسئولية التي

جعلـت عمـير بـن سعد أمير حمص: يحمل جميع أثاثه على جمل له حين استدعاه عمر ثم يرفض الإمارة لأنه قال لرجل : أخزاك الله . فهو يخشى أن يظلم الناس أمام الله تعالى ، هذه هي المسئولية التي جعلت علي بن أبي طالب وهو خليفة يرد حفنة من عسل أخذتها ابنته حين تبين أنها من المال العام هذه هي المسئولية التي توحي بها عقيدة التوحيد القرآنية فتجعل أي حاكم يؤمن بها يسنوء بمـا حمل ، والتي تجعل الفرد مرفوع الرأس دائما في مجتمع تسوده العدالـة ويعرف كرامة الإنسان : هذه العزة لا يمكن أن تقوم إلا عن طريق عقيدة القرآن العظيم التي تبين حقيقة معية الخالق للإنسان .

٧- هي مصدر السعادة الحقة الأبدية :

لا يعقل للسعادة وجود حقيقي دائم دون معرفة عقيدة التوحيد كما بينها القرآن العظـيم ، فهـي التـي تجعل الإنسان يتلذذ بمكارم الأخلاق ، ويفرح بإسعاد الآخريـن ، وهـي التي تجعله يهرب من الظلم وإيذاء الغير ، وينفر من أي تصـرف يسـخط خالقه ، لا يعقل للسعادة وجود بدون العدالة التي تقتضيها الحـرية الكـبرى المتفجرة من عقيدة التوحيد . لا يعقل للسعادة وجود بعيدا عـن الهدي المحمدي . ولك أن تطلق ما شئت على اللذة التي تعتري الإنسان سمها سعادة أو غير ذلك ولكنها في الواقع لا تمت إلى السعادة بصلة إلا بقدر صلتها بنور الهدي المحمدي .

ومنذ أعلن رسول الله ﷺ هذه الكلمة الجامعة " لا إله إلا الله محمد رسول الله" خر الباطل صريعا إذ بددت أنوارها الساطعة كل ظلام يستتر وراءه باطل ، وجردت الضلال من كل سلاح يحتج به ، ذلك لأنها حقيقة الحقائق الثابتة التي يرتكز ويقوم عليها الوجود ، والصراط المستقيم الذي جمع طرائق السعادة ،

وإن نعـيم الدنـيا والآخرة ليدور حول هذا المحور الخالد الذي يتوقف عليه الكمال الإنساني ، ولا يتذوق الإنسان من السعادة الحقة إلا بقدر قربه منه أو بعده عنه ، يقول الشاعر عندما غمره فيض هذه السعادة اللانهائية :

ومما زادني شرفا وتيها ... فكدت بإخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي ... وأن صيرت أحمد لي نبيا

٨- تقتضي وحدة المثل الإنسان الأعلى :

إن عقيدة التوحيد القرآنية تقتضي وجود المثل الإنساني الأعلى الذي يفصل حقيقة هذه العقيدة الشاملة ، ويحول دون انقسام البشر طبقا لما تسوله لهم أنفسهم . وإن كمال الإنسانية إنما يتوقف على وجود هذا المثل الإنساني الأعلى الذي يرفع الفرد بهديه إلى المستوى الإنساني ، ويحول دون تفرقة البشر إلى جماعات متطاحنة لا يجمعها في الإنسانية جامع أبدا . وإن تعدد المثل لدى كل أمة قد ترتب عليه تضارب الأمم واضطهاد القوي للضعيف وقيام حالة من التوتر الدائم بين المجتمعات لا يقر لها قرار .

فعقيدة التوحيد تقتضي أن الإنسانية واحدة ومثلها الأعلى واحد ، وربها واحد ، ورسالتها الجامعة واحدة . فالإسلام يقرر وحدة التجربة الإنسانية ولا يضع الحواجز بين الثقافات والشعوب ، ويعلن للناس جميعا أن الانطلاق مثل للأفراد وللجماعات وللشعوب إنما يكون على قدر اهتدائهم جميعا بالمثل الإنساني الأعلى للبشر جميعا ، وكلما اقترب السلوك الإنساني في مجال التطبيق الذاتي أو الاجتماعي من المثل الأعلى كلما اقترب من الصواب ، وكلما انحرف وخالف تعاليمه كلما ابتعد عنه ؛ هذا هو الشرط الأساسي لتوافر جميع عناصر القوة في الفرد والمجتمع وتحاشي عناصر الانحلال والضعف التي تعمل على تقويض وجود الإنسان وخفضه إلى ما هو أحط من المرتبة الحيوانية .

٩- تحول دون تكوين ما سموه " الصرح الأعلى " :

والصرح الأعلى أو البنية الفوقية يقصد بها أو به النظم السياسية والاجتماعية والاقتصـــادية والأخلاق والعادات والتقاليد وبعبارة أخرى الثقافة بمعناها العام التـــي تســـود فـــي مجتمع ما نتيجة تعلقه بالمادة ، والأصح تسميته بالصرح المادي الأعلى .

وهـــنا يبدو الإعجاز الذي ليس وراءه مرمى في عقيدة التوحيد القرآنية : إذا أنها تقرر المنهج العلمي الأصيل الشامل لكافة مجالات الفرد والمجتمع ، ومن أبرز سمات هذا المنهج أنه يحول دون تكوين صرح مادي أعلى أو بنية مادية فوقـــية تكون سجنا يحبس البشر بين أبعاده ، ويقفل أمامهم الطريق للانطلاق الســـوي . كما يحول دون قيام شروط التناقص في المجتمع، ثم هو بعد ذلك يضـــع القواعد لحلها حالما تظهر ، لأن المجتمع البشري تتفاوت فيه درجات الإنســـانية بين أفراده ؛ فلابد من ظهور التناقص فيه ، وفي مثل هذا المجتمع الذي يتمسك بحبل عقيدة التوحيد القرآنية لا توجد طبقة مُستغلة وطبقة مَستغلة وبـــذا يمتـــنع قيام الصراع الطبقي إذ يحل محله التعاون بين الأفراد والخلايا الاجتماعية .

ونسمي الصرح الذي يتدفق من عقيدة التوحيد القرآنية بالصرح القرآني وعلى قـــدر القـــرب أو البعد من هذا الصرح يتوقف صلاح الإنسان أو المجتمع أو فســـادهما وأي خلل يطرأ إنما ينجم عن الإخلال بشروط المنهج القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فالإســـلام يلغي ويقوض الصرح المادي الأعلى ويقيم الصرح القرآني الكامل الـــذي اشتمل على جميع الكمالات التي تتطلبها الاستعدادات البشرية ، والذي قـــرر جميع الضمانات التي تحول دون قيام صرح مادي أعلى . وهذه ناحية

مـــن الإعجاز ليست في طاقة المخلوقات جميعا ، وإن النظم لتلهث في سبيل تقرير جزئية من جزئيات إحدى القواعد التي قررها المنهج الإسلامي ثم هي تعجـــز بعـــد ذلك عن ربطها ربطا صحيحا بالنظام الذي يراد إضافتها إليه ؛ وذلـــك لســـبب بسيط وهو أن الوجود الإنساني له منهجه الكلي المتكامل في جميع أجزائه ولم يكمل هذا الوجود إلا في المنهج القرآني وإن التجاء أي ثقافة إلـــى ترفيع الوجود البشري لترتفع به إلى المستوى الإنساني إنما هي محاولة لا نستطيع أن نصفها إلا بأنه محاولة تأسيس دين من عنديات البشر ، وهيهات لبشر أن يدعي أنه يستطيع أن ينتظم الوجود الإنساني في دين من عنده ، وقد حاول كثير من جهابذة الفلاسفة الغربيين أو الشرقيين أن يأتوا بنظم تحل محل الدين ـــ كما يفهمونه لا كما هو ـــ وتخصص كل فريق في ناحية واحدة من نواحي الوجود الإنساني : كعلاقة الإنسان بالخالق . أو الوجود . أو المعرفة . أو الأخـــلاق أو التشريع فإذا بهم يضربون في متاهات وسراديب غارقة في الظلام ﴿ **والذين كَفَروا أعمالُهُمْ كَسَرابٍ بقيعةٍ يحسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءهُ لـــم يَجـــدْهُ شـــيئا ووجَدَ اللهَ عنده فوفّاه حسابَه واللهُ سريعُ الحساب ـــ ٣٩ـــ أو كظلمـــاتٍ في بحرٍ لجيٍّ يغشاهُ موجٌ من فوقه مَوْجٌ من فوقه سَحابٌ ظلماتٌ بعضُها فوق بعض إذا أخرَجَ يَدهُ لم يكَدْ يَراها ومن لم يجعَلِ اللهُ له نوراً فمالهُ من نُور** ﴾ ـــ ٤٠ ـــ سورة النور .

تبليغ القــرآن للعالمين يستلزم الانفراد بمرتبة الكمال الإنساني الأعلى فيمن أنزل عليه القرآن

إن الإعجــاز القرآني يستلزم أن يقابله إعجاز في الحقيقة المحمدية ، فكما أن الإحاطة القرآنية شاملة لحقائق الوجود كما هي في العلم الإلهي ، فإن الحقيقة المحمديــة شــاملة لكل كمال إنساني ممكن ، ذلك لأن تبليغ المعجزة العظمى للعالميــن ــ القــرآن العظــيم ــ وتفصيله وتبيانه للعالمين ، يستلزم التحقق والــتخلق بجمــيع ما جاء في هذا الدستور الإلهي من مراتب الكمال الشاملة للمخلوقــات ، إذ من المحال أن يتلقى هذه الكمالات ويؤمر بتبليغها وتفصيلها إلا مــن كــان متصفا بها ، وإن مجرد نزول القرآن الكريم عليه صلوات الله وسلامه عليه إنما هو إعلان إلهي للعالمين جميعا عن المرتبة المحمدية ، وهذا هــو تفســير جواب الصديقة الكبرى رضي الله تعالى عنها حينما سئلت عن أخلاقه ﷺ : فأجابت بهذا الجواب الجامع الخالد المشهور (كان خلقه القرآن) وإذا لم يكن في طاقة المخلوق كائنا ما كان أن يحيط بحقيقة كلام الله سبحانه وتعالى ، فمعنى هذا أن كمالاته الخلقية صلوات الله وسلامه عليه لا تحيط بها العقــول ، ولا تدرك منها إلا القدر الذي يناسب طاقتها ، وكلما تعمقت أقوى العقــول في سبيل اكتناه مكارم أخلاقه ﷺ كلما بهرها جديد لم تعرفه ، وكلما اكتشفت أنها غارقة فيما قبلته استعداداتها من النور المحمدي الباهر ، وأنها لم تــدرك سوى ما انعكس على وجودها من ذلك البهاء الساطع ، ولم تشهد من هــذا الخلــق الكــامل إلا ظلــه ، ولا يزال يفصل بينها وبين حقيقته مراتب لا تنتهــي من الكمالات ، التي تُشْعِرُ بأن ما أدركناه لازال وراء ما وهبه الله تعالى لمن أرسله رحمة للعالمين :

فهو الذي تم معناه وصورته ... ثم اصطفاه حبيبا بارئ النسم
منزه عن شريك في محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غير منقسم
دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
فانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وأنسب إلى قدره ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم
لو ناسبت قدره آياته عظما ... أحيي اسمه حين يدعى دارس الرمم
لم يمتحنا بما تعيا العقول به ... حرصا علينا فلم نرتَبْ ولم نَهِمِ
أعيا الورى فهم معناه فليس يرى ... للقرب والبعد منه غير منفحم
كالشمس تظهر للعينين من بعد ... صغيرة وتكل الطرف من أمم
وكيف يدرك في الدنيا حقيقته ... قوم نيام تسلوا عنه بالحلم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

هذا هو ما يقرره العقل من أول وهلة في حق من أرسله الله تعالى مبينا ومبلغا ومفصلا للوحي الإلهي الجامع الخاتم للرسالات ﴿ **قَدْ جاءكُم مِن اللهِ نورٌ وكتابٌ مبيـن ــ ١٥ــ يهْدِي به اللهُ من اتَّبع رِضْوانه سُبُلَ السلامِ ويُخْرِجُهُم من الظُلماتِ إلى النورِ بإذنه ويَهْدِيهِمْ إلى صراطٍ مستقيم ــ ١٦ ــ** ﴾ ــ سورة المائدة

إن المرتبة القرآنية تقتضي انفراد من أنزل عليه القرآن العظيم بكل كمال ممكن . ومن هنا يستطيع أي إنسان عاقل أن يقرر الكمالات الخلقية اللائقة بمرتبة ذلك النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه بالبداهة ؛ ولتقرير هذه الحقيقة نطرح هذا السؤال :

ما هي مكارم الأخلاق التي يجب أن تصدر عن ذلك الذي أرسله الله سبحانه وتعالى رحمة للعالمين ، ليبلغ كلامه العزيز ، ويبين معانيه بأقواله وأفعاله

وأحواله وأخلاقه ، وينفذ أحكامه ، ليهتدي العالمين بهديه ، ويتبعوا النور الذي أُنزل معه ، ويرتقي به كل مخلوق إلى الكمال المناسب لاستعداداته فيسعد دنيا و آخرة ؟ .

إن هـذه المرتـبة تقتضـي أن يكـون صاحبها قد بلغ أقصى مراتب الكمال الإنسـاني الممكن في كل شيء ، ومن الكمالات الخلقية التي يجب أن تصدر عن تلكم المرتبة ندرك بداهة على سبيل المثال الذي يفتح الذهن لإدراك ماشاء من مكارم الأخلاق :

١- كمال حب الله سبحانه وتعالى ، وهذا يستلزم التخلق بكل كمال ممكن يدل على الكمالات الإلهية وبلوغ أقصى مراتب الكمال فيما يقتضيه ذلك التخلق ، وعلى هذا تكون جميع أقواله وأحواله دلالات تامة على الله سبحانه وتعالى ، وفاتحـة لأبـواب الترقي في معارج الكمالات الإلهية التي تقتضيها الأسماء الحسنى ، والتي اشتمل عليها القرآن العظيم ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ــ ٣١ ــ** ﴾ سورة آل عمران .

فهذه المرتبة تقتضي أن يكون صاحبها قد ملك أعنة مكارم الأخلاق ، لأن أي نقـص فـي ذلك إنما يتنافى ويتناقض مع ما تعطيه هذه المرتبة وتقتضيه من انفراد في الكمال الإنساني الأعلى .

وكمال محبة الله عز وجل يستلزم كمال محبة الخلق في الله ، لأن حب الخلق على الوجه الكامل لا يصدر إلا عن حبه تعالى ، وعلى قدر ما يؤتى الإنسان مـن حـب الله تعالى يكون حبه الحقيقي للمخلوقات ، وعلى قدر هذه المحبة يكون الخير الصادر منه إلى الخلق ، وكلما ازداد هذا الحب كمالا ، كلما اشتد اجـتهاد الإنسان في سبيل إسعاد الناس ولا حب أجمع ولا أكبر من حب ذلكم

الـــذي يفصـــل لهـــم جميع الطرق الموصلة إلى سعادتهم الشاملة الكاملة دنيا وأخـــرى ، ولا حـــب أجمع ولا أكبر من حب ذلكم الذي يجمع العالمين على كتاب الله العزيز المفصّل لجميع مراتب أهل السعادة والشقاء .

إن هذه المرتبة تقتضي أن يكون صاحبها مبرأ من كل عيب خُلُقي فلا يصدر عـــنه إلا أعلـــى كمال خلقي ممكن يتدفق من أسماء الله الحسنى فقد جاء في الحديث القدسي (وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به) الحديث القدسي .

ولـــذا جـــاء في مبايعته ﷺ ﴿ **إِنَّ الَّذِيـــنَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ من الآية العاشرة من سورة الفتح . ومن ذلك كله يتفرع :

٢- **كمـــال الرحمة بالخلق** : وهو نور ناشئ من الرحمة المتنزلة من الله عز وجـــل علـــى العبد ، وعلى قدر رحمة العبد بالخلق يكون نصيبه من الرحمة الإلهـــية ، ولمـــا كـــان تبليغ القرآن العظيم هو الرحمة العامة التامة البالغة للعالميـــن لذا كانت رحمته صلوات الله وسلامه عليه بالخلق لا توازيها رحمة الـــناس جميعا ﴿ **وما أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ ــ ١٠٧ سورة الأنبياء . لذا كان صلوات الله وسلامه عليه يتفطر أسى كلما رأى إعراض المشركين عن الإيمان بالله تعالى حرصاً على هدايتهم ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى ءَاثَارِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً** ــ ٦ ﴾ سورة الكهف .

٣- **كمال العفو** : فينتفي نهائياً الميل للانتقام ، ولا يبقى للسوء والأذى بالغاً ما بلغ من العنف أن أثر في صاحب هذه المرتبة ، بل يكون بمثابة من لم يقع له شـــيء يؤذيـــه ، إذ لو بقي لذلك أي أثر لتنافى مع كمال الحرص على دلالة الخلـــق علـــى الله تعـــالى . فهذه المرتبة تقتضي العفو عن الظالم ، وحسن

التجاوز عن المسيء ، ولذا نجد أنه صلوات الله وسلامه عليه حين يشتد أذى قومه يدعو لهم فيقول " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون[1] " .

٤- **كمـــال التواضـــع لله سبحانه وتعالى ــ** وهذا يستلزم خفض الجناح لمن أحـــب الله تعـــالى خاصـــة ، وللخلق جميعا لأن من شأن الكبر تنفير الناس وطردهم ، واحتجابهم عن خالقهم .

٥- **كمـــال الشـــكر :** ولا يشكر الله تعالى ولا يشكر الناس إلا عارف بالنعم وقـــيمة كل منها ، ولما أن القرآن العظيم هو الرحمة التامة الشاملة لكل نعمة فقد أوتي صلوات الله وسلامه عليه من الشكر بقدر ما أنزل عليه من الوحي ، وهذه مرتبة لم يدركها سابق ولا لاحق .

٦- **كمـــال الهدايـــة :** وهذا يستلزم الإعجاز العلمي في المعرفة الكاملة بالله سبحانه وتعالى ، وبذا تتم الدلالة الكاملة إلى صراط الله العزيز الحميد ، فهو صـــلوات الله وسلامه عليه الفاتح للمعارف الإلهية التي فصلها القرآن العظيم ليدخل كل إنسان من أي باب من أبواب المعرفة المناسب لاستعداداته .

ويســـتلزم ذلك أيضا كمال العلم بما خُلق الخلق لأجله ، ليعلم الناس ما للحق علـــيهم أن يفعلـــوه ، وما لهم إذا فعلوا ذلك من جزاء عند الله تعالى ، وماذا علـــيهم إذا لم يفعلوه وما يلحقهم من العقوبة ــ ويدخل في هذا الباب تفصيل مراتـــب الكمـــال الإنساني وبيان آداب كل مرتبة في معاملة الخالق سبحانه وتعالى ليقتدي به كل متخلق بأية صفة من صفات الكمال ويهتدي به صلوات

---

[1] قـــرن هذا الدعاء الجامع حسن التجاوز عن المسيء بطلب السعادة الأبدية له والاعتذار عن إساءتـــه .

الله وســـلامه علـــيه فيما تقتضيه كمالات هذه المرتبة . كما يدخل فيه أيضا تحذيـــر البشر من كل باطل يحجب الإنسان عن الإيمان بالله تعالى ، وتفصيل مراتـــب أهل الشقاء ليتجنب الناس كل سبب يفضي إلى شقوتهم ــ وهنا نواح مـــن الإعجـــاز تتعلق بالتشريع والفقه والأخلاق والاجتماع والتربية والعقيدة والنفس والروح والعقل ... الخ .

٧- **كمـــال الامتـــثال لما يوحيه الله سبحانه وتعالى** ، وهذا يقتضي أن يكون قول الحق سجية وطبيعة ولا يتصور عنه غيره ، ولا ترجع النفس عن الحق مهمـــا لاقت ، ولو كان في ذلك مخالفة الأحباب ومفارقة الأوطان والتعرض للقتل وجميع أصناف الأذى ولقد طلب المشركون منه ﷺ أن يرجع عن قوله وراودوه عن ذلك بكل حيلة فأبى وامتنع ، ثم نصبوا العداوة ورموه عن قوس واحدة وهو ﷺ على ثباته ورسوخه لا يكترث بشيء . ومن لوازم هذه المرتبة الصدق في كل الأقوال والأفعال والأحوال التي تكون وفق الوحي الإلهي .

ويستلزم ذلك أيضا كمال التمكن من الصبر الحقيقي بصدد كل أذى في سبيل الله عز وجل ، وعدم المبالاة به بلا كلفة ولا مشقة . وإذا كان مصدر الصبر هـــو الثـــبات علـــى المبدأ والإيمان به ، فلك أن تتدبر فيما أوتيه صلوات الله وسلامه عليه من قدرة على الاحتمال توازي إيمانه بخالقه سبحانه .

٨- **كمال العـــدل** : طلب الله سبحانه وتعالى من عباده العدل في معاملتهم مع الله سبحانه وتعالى وكل ما سوى الله من أنفسهم ومن غيرهم . وما ندب عباده إلـــى فضـــيلة وحســـن خلق إلا و كان الجانب المحمدي أحق بها ، والمرتبة القرآنـــية تقتضـــي أن يكـــون صاحبها موفياً لكل مرتبة حقها ، وهذا يستلزم التـــبري من جميع تعلقات الهوى المذموم وهو ما خالف الشرع ، إذ أن هذا

يتـــنافى مع بديهيات مرتبة العدل القرآني ، وأية مخالفة يترتب عليها ملابسة النقص في جميع مظاهر الإنسان في الفعل والقول والخلق والحال . وقد شرع الله تعالى الترجيح في الفضل ولم يشرعه في الشر ، وإنما قال : ﴿**وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَـعَ المُتَّقِيـنَ ــ ١٩٤**﴾ سورة البقرة ــ ﴿ **وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِين ــ ٤٠**﴾ سورة الشورى.

٩- **الإعجـــاز في كمال التعلق بالله سبحانه وتعالى** مما يوجب كمال السكينة والطمأنيـــنة بتبلـــيغ أوامـــر الحـــق عز وجل ، ولو أجمع أهل الأرض على معارضـــته وعداوته فإنه لا يبالي بهم ولا يكترث بشأنهم ، بل يثبت لهم ولا يراهم إلا بمنزلة العدم . وهذا بخلاف من كانت طمأنينته من تصوره النفسي فإنه تدخله الوساوس والعلل التي تدفعه إلى الخطأ في التصرف ، وتنفث فيه الوهن على قدر ما يقبله منها .

وصـــاحب الرســـالة المحمديـــة صلوات الله وسلامه عليه قد وقف أمام أهل الأرض جميعا حتى يرجعوا عن كفرهم لا يتأثر بقلة عدد ولا بكثرته ﴿ **فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللهِ هِـيَ العُلْـيَا واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ ــ ٤٠ سورة التوبة ــ ﴿ **فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُـولِهِ وَعَلَى المُؤْمِنِين وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ــ ٢٦** ﴾ سورة الفتح ، وإنزال السكينة على رسول الله ﷺ : هو إظهارها بمشاهدة آثارها من الثبات ومصابرة العدد الكثير ، وإنزالها على المؤمنين بإحداثها فيهم واستعدادهم لها منه صلوات الله وسلامه عليه .

١٠- **كمـــال العبودية لله سبحانه وتعالى** : وهذا يستلزم بلوغ أقصى درجات الكمـــال في معرفة أسماء الله الحسنى ، ومقابلة كل اسم من أسمائه عز وجل بآداب العبودية اللائقة بذلك الاسم ، كما يقتضي بيان مراتب عبودية الخلق لله ســبحانه وتعالى وتعليمهم طرق العبادة السليمة التي أمر بها الحق عز وجل عباده ليتم نعمته عليهم ــ ويدخل في هذا الباب الإعجاز في بيان آداب معاملة المخلوق للخالق سبحانه .

١١- **تكامل الصورة الخلقية بدرجة واحدة** : فلا تجد خلقا كاملا دون خلق ، ولا خلقـــا معارضا لخلق ، بل إن جميع الأخلاق مستوية في مراتبها ، نابعة مـــن مصـــدر يقرر أنه أفضل الخلق على الإطلاق ، وما من شخص نبحث جوانـــب أخلاقـــه إلا عثرنا عنده على خلق سائد على سائر أخلاقه ، أما أن تكـــون الأخـــلاق بالغة الذروة ، وفي نفس المستوى دون تفاوت في درجات كمالها ، وجميعها دلالات على الخالق سبحانه وتعالى ، وطرق إلى مرضاته عز وجل موضحة ما في القرآن العظيم من علاقة بين المخلوق والخالق وبين المخلـــوق والمخلـــوق وإن هذا من خصائص المثل الإنساني الأعلى للعالمين صلوات الله وسلامه عليه .

وإذا كـــان كل خلق [١] يستمد من إلزام معين يدفع إلى التخلق به سواء أكان مصـــدر هـــذا الإلـــزام الضمير أم الإلهام أم العادات أم التقاليد أم المجتمع أم الـــثقافة أم الوراثة ، فما بالك بمن كان مصدر الإلزام فيه هو الوحي الإلهي الجامع ؟ وإذا كان اتساع الخلق يتناسب مع قوة ذلك المصدر فما بالك بمكارم

---

[١] الأخـــلاق تتشـــكل طـــبقاً لعقيدة الإنسان في تقييم وجوده الذاتي ، وهذه العقيدة هي التي تلزم الإنسان في النهاية باتباع سلوك معين ــ راجع :

Whitehead : An Anthology . p.p. 471,472.

الأخـــلاق الصـــادرة عن المرتبة القرآنية الجامعة ؟ وإذا كان لكل مقام كماله الـــذي يلـــيق به فما بالك بالكمالات اللائقة بمقام من أرسله الله تعالى رحمة للعالمين؟ وإذا كان لكل إنسان من الصفات الحميدة على قدر قابليته ، فما بالك بمن وسعت قابليته ﷺ كمالات شريعته ؟ وإذا كانت دعوة الخلق إلى الكمالات تحتاج إلى كمال في كل ما يدعو الناس إليه من مكارم الأخلاق ، فإن رسول الله ﷺ قـــد اجتمع فيه من الكمال بقدر ما اجتمع في شريعته ، لأن كل كمال يحتاج في تقريره إلى خلق يناسبه وهذا هو ما قرره صلوات الله وسلامه عليه " إنمـــا بعثـــت لأتمم مكارم الأخلاق " . وقد بين القرآن الكريم سموه الخلقي صـــلوات الله وسلامه عليه ، ويكفيه المدحة الإلهية الكبرى المتفجرة من قوله تعالى ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ ومن هذا الإعجاز الخلقي الذي يخطف سناه الأبصـــار تدفـــق البيان المحمدي مفصلا الإعجاز القرآني هذا التفصيل الذي لا يمكن أن يصدر إلا عن أكمل البشر على الإطلاق .

وعلـــى هذا النحو نستطيع أن نفهم أخلاقه صلوات الله وسلامه عليه فنحن لا نـــدرك مـــنها إلا ما اعتدناه وإلا ما وسعته عقولنا ، وهذا هو ما يقرره العقل على ضوء الهدي القرآني ، وما يقرره أي باحث منصف يقارن ما بين الهدي الأخلاقـــي المحمـــدي وبين الأخلاق الواقعية في أي مجتمع من المجتمعات والأخلاق العملية والنظرية والمثالية في أي فلسفة معاصرة أو غير معاصرة.

ومن نواحي الإعجاز الخلقي في الهدي المحمدي نذكر على سبيل المثال :

١- توضـــيح المعايير الصحيحة للقيم الثابتة الأصيلة التي ينبع منها كل خلق إنساني .

٢- تحديد معاني الخير والشر بما لا يفسح المجال لأي اضطراب في السلوك يـــؤدي إلـــى فساد المجتمعات ، ورسم صورة واضحة للمستوى الخلقي تحتم الـــتفاعل الاجتماعـــي في مستوى إنساني رفيع ، لتتوافر البيئة الصالحة لنمو الفضائل .

٣- تقريـــر مصدر الإلزام الحقيقي للأخلاق ، وهذا لا يتم إلا بتفصيل أسماء الله الحسنى وبيان صفاته القدسية سبحانه وتعالى ما يليق بحضرة الألوهية من كمالات ، والتحقق بآداب العبودية الحقة الملازمة للمخلوق مع خالقه ، إذ من المحال أن يكمل الوجود الإنساني مالم تتم له المعرفة الصحيحة بالله عز وجل

٤- تكـــامل البنيان الأخلاقي بتوحيد الغاية النهائية من وجود الإنسان وبالتالي مـــن أعماله وتصرفاته ، ولما كانت الغاية النهائية للوجود هي الله سبحانه و تعالى إذ ما من مخلوق يستطيع أن يدعي أنه خالق لوجوده ، فيتحتم أن تكون النـــيات فـــي الأقـــوال والأفعال [١] كلها لله سبحانه وتعالى ، ولا يتم ذلك إلا بالإيمـــان بـــالله تعـــالى ولا يكمل الإيمان إلا بمعرفة شعبه التي فصلها أمام المؤمنين على الإطلاق ، وحينئذ يتم توحيد الكيان الخلقي وتكامله فيكون الحب لله ، والـــبغض والغضـــب مـــن أجل انتهاك محارم الله ، والأخوة في الله ، والتعاون على البر والتقوى ، والجهاد في سبيل الله تعالى ، وهكذا في الرحمة والعفـــو والإعطاء والمنع ... الخ . وإن المبادئ الخلقية الخالدة التي تفجرت مـــن مكـــارم أخلاقه صلوات الله وسلامه عليه ، تجعل كل مجتمع أو أمة أو إنســـان أو مخلـــوق إنما يمسك بأعنة الكمال لو تخلق بها ، ومما تؤدي إليه ما نذكره على سبيل المثال :

(١) وضع أسس الكمال الذاتي بتوضيح هدف الإنسان في الحياة كيلا يضل أو ينزلق إلى وهدة الانحطاط الحيواني .

(٢) وضع أسس الكمال الاجتماعي من جميع وجوهه ؛ ومنها : بناء العلاقات الاجتماعـــية علـــى دعـــائم القيم الأصيلة التي يتوقف عليها الوجود الإنساني

---

(١) هـــذا ما يقرره فلاسفة الأخلاق الدينية . فيقرر ــ مور ــ أن المؤمن يكرس حياته لخدمة خالقـــه وإن خدمته لغيره إنما يقصد بها خدمة خالقه ، وهذه المعاملة تمتاز بالثبات وعدم الزوال، لأنه لا يعامل إلا الخالق عز وجل ــ راجع: Moore:Principles of Ethics . p., 6.

الكـــامل ، ممـــا يفسح المجال لنمو الفرد نمواً صحيحاً سليماً ، ويجعل البيئة صـــالحة لازدهـــار وتولـــيد الأخلاق التي تتوقف عليها صلاحية المجتمعات ورقـــيها وتقدمهـــا : كـــالعدل ، والصراحة في الحق ، والصدق ، والإيثار ، والأمانـــة ، والوفـــاء ، والأخوة ، والرحمة ، والمحبة، والتقوى ، والإحسان وحســـن المعاملـــة وإقرار الضمان الاجتماعي، والتكافل والتعاون بين أفراد المجـــتمع ، وإلغـــاء الاســـتبداد و اســـتعباد الإنســـان للإنســـان أو استغلاله والتلاعب به .

(٣) اجتثاث القيم المزورة والعاهات الخلقية : كالرياء والنفاق والكذب وحب الذات حبا يضر بالآخرين ، والتعالي على الناس ، ومثل هذه القيم إذا انتشرت فـــي مجتمع ما شتت مجهود الفرد وبددت نشاطه وجعلت الحياة ملحمة سداها ولحمتها الصراع مع الآخرين ، مما يولد الحقد ، وينشر الكراهية ويحول بين الأفراد وبين أداء حقوقهم وواجباتهم الأصلية ، ويصبح المجتمع أرضاً خصبة تـــنمو فيها العاهات النفسية والخلقية التي تمتص طاقة الفرد وتحول بينه وبين الســـلوك الســـوي ، وإذا استشرت هذه العلل صار المجتمع من الشواذ الذين لا يشـــعرون بدرجة شذوذهم نظراً لانتشار هذه العلل بينهم ، بل أن مثل هذه المجتمعات تنظر إلى كل خلق كريم على أنه شذوذ .

ولتأميـــن المجتمع ضد الانحطاط فرض الإسلام على الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووضع أصول التربية السليمة التي تولد في الفرد الشجاعة الحقـــة فلا يخشى في الله تعالى لومة لائم . ومن تأمل وتدبر في هذه المسألة وجدها من معجزات الإسلام الخالدة ، فبدونها لا يصح مجتمع .

١- الحيلولة دون نمو قواعد عرفية فاسدة تفتك بالمجتمعات إذ تصبح مصدرا للتقييم المزور مع مرور الزمن .

٢- تحديـــد العلاقة ما بين السلطة والحرية : هذه العلاقة التي اضطربت في ســـبيل تقريـــرها جميع الفلسفات السياسية والاجتماعية ، مما أدى بالتالي إلى اضطراب الأوضاع المترتبة عليها ، والصراع الدائم في سبيل الوصول إلى العلاقة الصحيحة .

هـــذا كله وغيره مما لا يحيط به حصر : يجعل أي باحث في جوانب الخلق المحمـــدي يقرر دون تردد أو محاباة أنه أمام أفضل العالمين على الإطلاق ، وإن أقـــوى الفلسفات الأخلاقية لتنحني إجلالا لمكارم الأخلاق الصادرة عمن أُنزل عليه القرآن العظيم :

١- لانفراده صلوات الله وسلامه عليه بأسمى الأخلاق التي يمكن أن يتصف بها إنسان .

٢- وانفراده ﷺ بتقرير الأخلاق العملية الكاملة التي لا يصلح فرد أو مجتمع بدونها ، والهدي إلى الطرق العلمية القويمة للتحلي بها .

٣- وانفـــراده ﷺ بالتربـــية الكاملة المناسبة لاستعداد كل فرد ، حتى ضرب أصحابه رضوان الله تعالى عليهم المثل للعالمين جميعا في قوتهم الخلقية بقدر درجـــة انطباعهم بالتعاليم المحمدية وهذا ما ثبت لنا من أقوالهم وأفعالهم التي سجلها التاريخ .

٤- وانفـــراده ﷺ مـــن الجانـــب الخلقي بالإعجاز العلمي والبياني والزمني والواقعـــي العملي ، هذا الإعجاز الذي تم قبل أن تنتشر مناهج البحث الحديث ووســـائله وقبل أن تظهر علوم النفس والاجتماع ، ودون أية دراسة مدرسية للعلـــوم والأخلاق ، مع أن الفلاسفة قد يفنون أعمارهم في الدوران حول مبدأ

من المبادئ الخلقية التي قررها صلوات الله وسلامه عليه دون أن يصلوا إلى نتائج محققة مع توفر جميع إمكانيات البحث والتخصص ، فما من مبدأ وضعته مدرسة فكرية إلا وقد نقضته مدرسة أخرى ، هذا مع استخدام المصطلحات العلمية التي ترتفع فوق مستوى الرجل العادي ؛ بينما نجد أن جوامع كلمه ﷺ تنفذ إلى الحقيقة نفوذا يفصلها في جلاء لا يحتاج إلى بيان مع إحاطتها بالمعاني التي يتناولها الموضوع فيفهمها أي فرد على قدر مستواه ، ثم إن المفكر أو الفيلسوف قد تخصص في نقطة معينة قد أتقنها ، بينما نجد أنه صلوات الله وسلامه عليه يقرر كل ما يمس الحياة الإنسانية ، ويضع القواعد الشاملة للوجود الإنساني بالرغم من أنه يواجه كل مقاومة يتعرض لها إنسان.

هذا هو الذي حاز النهاية في جميع الأوصاف الإنسانية المحمودة مما تقتضيه مرتبته : فلا كشجاعته شجاعة ، ولا كسخائه سخاء ، ولا كعفوه عفو ، قد انفرد في كماله الإنساني انفراداً جعل كل مخلوق يقف على ساحل الكمال المحمدي حائراً مبهوتاً . وفي ذلك يقول الإمام محمد وفا :

فأنت رسول الله أعظم كائن ... وأنت لكل الخلق بالحق مرسل
فؤادك بيت الله دار علومه ... وباب عليه منه للحق يدخل
ينابيع علم الله منه تفجرت ... ففي كل حي منه لله منهل
منحت بفيض الفضل كل مفضل ... فكل له فضل به منك يفضل
نظمت نثار الأنبياء فتاجهم ... لديك بأنواع الكمال مكلل

تهافت أقوى الفلسفات أمام

الكمال الخلقي المحمـــــدي

ومـــا دمنا بصدد الحديث عن أخلاقه صلوات الله وسلامه عليه ، فلابد من أن نـــأخذ فكرة عن مناهج العلماء في الأخلاق لنعلم مدى صلاحيتها من جهة ، ولـــنقارن مـــن جهة أخرى بين ما جاءوا به وبين ما جاء به المثل الإنساني الأعلى ، وإن أقوى الفلسفات لا يسعها في هذا الصدد سوى التسليم بالإعجاز الخلقي المحمدي .

الطغيان المادي على الحضـــارة الحديثة :

لـــم ينـــته عصـــر النهضة الأوربية حتى كانت الحضارة الأوربية قد اتجهت اتجاهـــا ماديا يفصل المخلوق عن الخالق . لقد كان أمام الفلاسفة طريقان لا ثالث لهما :

١/ إمـــا أن تســـلك الطريق المستقيم في تفسير الوجود وبذا يمكنها أن تحدد معانـــي الخـــير والشر وأن تبني القيم والعلاقات الإنسانية ، ومن ثم المجتمع الإنساني على أسس سليمة ، وهذا ما لا يتم إلا عن طريق المعرفة الصحيحة بالخالق عز وجل ، وهذه المعرفة تحتم الإيمان بالرسالة الخاتمة العامة .

٢/ وإما أن تتجه اتجاها ماديا لا مفر منه .

ولـــم تســـتطع الفلسفة أن تسلك الطريق الأول ، إذ عجزت عجزا مطلقا عن صـــياغة فلسفة كلية تنتظم الوجود الإنساني ، ولم يكن ينتظر منها سوى هذا الفشـــل المبكـــي ، إذ كان على أي فيلسوف يحاول الوصول إلى هذه الفلسفة

الكاملـــة الصـــحيحة أن يحيط علما بالكون وما اشتمل عليه من حقائق ، وأن يحـــيط بـــالموجودات وعلاقاتها ببعضها ، وبالحوادث وترتيبها ، وبالكائنات ومصـــائرها ، وهـــذا مالا يكون إلا لخالق الكون سبحانه وتعالى وقد فصلته الشريعة المحمدية ، وعلى هذا فلم يكن هناك مفر من أن يخبط الفلاسفة خبط عشـــواء في تفسير الوجود وفي ربط الإنسان بالخالق ، وكل منهم كان يقرر المذهـــب الذي تمليه عليه ثقافته ومعرفته ، مما انتهى بهم إلى وضع نظريات لا توضـــح صـــلة الخالق بالمخلوق بقدر ما تخضع الخالق ـــ كما عرفوه ـــ والمخلوق لتفسيرات ملتوية مضطربة مادية .

وكأن الفلاسفة قد هربوا من الألوهية كما هي مقررة عندهم في أديانهم ، إلى ألوهـــية من صنعهم ، وصاغوا ديانات لا تنتهي كثرتها دون كثرة واضعها ، وكلهـــا تـــتراوح مـــا بين إلحاد وتعطيل وتجسيم وحلول ، وكلها موغلة في مـــتاهات لا تستطيع الفكاك منها ، ولم يكن لها من نتيجة سوى الإغراق في المفاهيم المادية التي إن اختلفت صورها ، لم تختلف معانيها ، و هكذا بدا أن الفلسفة منساقة إلى هاوية لابد منها : هاوية التفسير المادي للوجود ، وأخذت فـــروع الفلسفة المختلفة تتجه اتجاها ماديا أكيدا يقطع صلة الإنسان بخالقه ، سواء أكانت هذه الفلسفة تعترف بوجود الخالق أم تنكره .

ومـــا جـــاء القـــرن الثامن عشر حتى اشتدت النزعة المادية في كل ميدان : فنيوتـــن مع تدينه ذهب إلى إعطاء الخالق حق الدفعة الأولى للوجود! وذهب آخـــرون مـــثل تولند Toland (ت:١٧٢١) وماثيو تندال ١٦٥٦ـــ١٧٣٣ إلى تفسير العالم تفسيرا ميكانيكيا ، وأكد لامتري ١٧٠٩ـــ١٧٥١ الطبيعة المادية للإنســـان في كتابه "التاريخ الطبيعي للإنسان" وانتصر فولتير ١٦٩٤ـــ١٧٧٨ للديـــن الطبيعـــي ، ودعا روسو إلى دين ذي وجهين : وجه طبيعي ، ووجه

مسيحي . ثم نشر هلباخ Holbach ١٧٢٣ــ١٧٨٩ كتابه نظام الطبيعة الذي أعلن فيه أن العالم مادة تتحرك حركة ذاتية تتوالد عنها الموجودات وأيد ديدرو Diderot ١٧١٣ــ١٧٨٤ وهلفتيوس Helvetius ١٧١٥ــ١٧٧١ مثل هذه الآراء ، وجرى كتاب الموسوعة الفرنسية ، على هذا النمط ، ونادى كابانيي Cabanis ١٧٥٧ــ١٨٠٨ بأن الإنسان مجموعة أعصاب وأن العقل يفرز التفكير كما تفرز الكبد الصفراء !

وتجلت النزعة المادية في الثورة الفرنسية حين أعلن زعماء عهد الإرهاب إبريل ١٧٩٣ ــ أبريل ١٧٩٤ ــ إبطال الديانة المسيحية وكل الديانات الأخرى وإعلان عبادة الحق والعدل ، أي أن الثورة قد اتجهت إلى عبادة شارتها ! ولما انفرد روبسبير بالسلطة دعا إلى عبادة ــ الكائن الأعظم ــ وجعلها دين الدولة الرسمي .

وكان قيام الثورة الصناعية نذيرا بطغيان الاتجاه المادي على جميع الميادين فما أن انتشر استخدام الآلات حتى انتشر معه استغلال الإنسان للإنسان وامتد هذا الاستغلال إلى التشريع والتقنين ، ونحتت الأخلاق والتقاليد بل والمواعظ الدينية نحتا ماديا ، وفشل اللاهوت بعيدا عن الهدي القرآني عن حل مشاكل البشر ، فأخذ علم الأخلاق ينفصل نهائيا عن الله تعالى ، وقام اتباع المدرسة السيكولوجية بتأسيس الأخلاق على نظريات نفسية : مثل مدرسة الحاسة الأخلاقية ومن رجالها شافتسبري ١٦٧١ــ١٧١٣ ، وهتشسون ١٦٩٤ــ ١٧٤٧ وآدم سميث ١٧٢٣ــ١٧٩٠ ، ومدرسة المنفعة وأشهر ممثليها في القرن الثامن عشر هلفتيوس .

وطغـــت المادية على القرن التاسع عشر ، فقامت المذاهب الحسية والتجريبية تـــنكر مـــا وراء العالم المحسوس ، ورفض زعيم الفلسفة الوضعية أوجست كونت ١٧٩٨ــ١٨٥٧ كل المحاولات العقلية لإثبات الدين بحجة أن البحث في أصـــل الوجـــود بحث مستحيل على العقل وعلى الفلسفة ، وحاول كونت أن يضـــع فلســـفة كلية للبشر تغنيهم عن الأديان وباقي الفلسفات! وجاهد تلميذه لافيـــت Laffitte بضرورة نبذ كل ما يتصل بالعالم الآخر ، وقرر أن كل ما يتصـــل بـــاللاهوت مآله إلى الانقراض . وحتى الذي اعتقد في وجود الخالق ســـبحانه وتعالى أخذ يتقهقر ، ويضع لاهوتا مجردا من كل سلطة أو عمل ، وصـــنع آلهـــة طبقاً لما صوره هواه . فحرم جون تندال Tyndall ١٨٢٠ــ ١٨٩٣ علـــى إلهـــه الـــتدخل في الطبيعة أو في الحياة الشعورية ، وأوجب الاعتراف به فقط ! وهكذا بدا للفلسفة أن تقوم بصناعة أرباب تضفي عليهم ما شـــاءت من الصفات ، وهذا إن اختلف مع الوثنية في الشكل ، إلا أنه يطابقها في الجوهر ، وخضعت الفلسفة الأوربية وتوابعها للتفكير المادي سواء دافعت عن وجود الخالق أم أنكرته .

وواصـــلت الأخـــلاق نزعـــتها في الانفصال عن اللاهوت : فاشتهر من بين فلاسفة مدرسة المنفعة : بنتام ١٧٤٨ــ١٨٢٣ وجون ستيوارت مل ١٨٠٦ــ ١٨٧٣ ومن فلاسفة المدرسة التطورية سبنسر ونيتشـــه .

وقـــررت المدرســـة الماديـــة إلغـــاء العقائد الدينية نهائيا ، فأسس موليشوت Moleschott ١٨٢٢ــ١٨٩٣ ــ فلسفته على أساس أن أصل الحياة هي المادة والطاقـــة ، وأيد كارل فوجت Vogt ١٨١٧ــ١٨٩٥ رأي كاباني في تركيب الإنســـان ، واقـــتراح هيكل Haeckel ١٨٣٤ــ١٩١٩ ــ أن يكون الأثير هو الإلـــه الذي يمكن أن يوفق بين العلم وبين عقائد رجال الدين ! وقرر اوستفالد Ostvald أن الوجـــود هـــو الطاقة وعلى هذا الأساس فسر الإله الذي يعتقده والمادة والحياة والحضـــارة .

التفسير المادي للكون نهاية مراحل الانحطاط الخُلُقـــي :

تقدمـــت جمـــيع فروع العلوم تقدما استغله الماديون في لم شتات جميع العلوم وصياغتها في نظرية مادية شاملة تفسر الوجود تفسيرا علميا ــ كما يحلو لهم ــ وإلا فهو أبعد شيء عن العلم والعقل والفطرة . لقد عجز الماديون القدامى من فلاسفة اليونان ، وبخاصة المدرسة الذرية ــ ومن نسج على منوالهم عن ســـد الـــثغرات المفتوحة في تفسيراتهم المادية للوجود ، أما في القرن التاسع عشر فقد أمكن استغلال الكشوف العلمية والارتكاز عليها لا للإيمان بالله عز وجل بل لسد الثغرات المفتوحة في الفلسفات المادية التي تنكر وجود الخالق ! وممـــن حـــاولوا صياغة نظرية مادية شاملة حديثة تفسر الوجود : فيورباخ Feuerbach ١٨٠٤ــ١٨٧٢ ، ولودفيج بوخنر Buchner ١٨٢٤ــ١٨٩٩.

على أن أحدا من الفلاسفة الماديين لم يستطع أن يضع نظرية كلية كونية مثلما فعل ماركس وصديقه انجلز ، وقد جاءت هذه النظرية في الوقت الذي تم فيه عـــزل الديـــن نهائـــيا عن جميع مجالات الحياة البشرية ومن هنا تستمد هذه الـــنظرية خطورتهـــا ، فقـــد محـــت جميع الأديان وجاءت بدلا منها بالدين الماركسي.

عرض سريع لبعض الفلسفات الأخلاقية الحديثة :

لقد كان من المنتظر أن يتفرق الفلاسفة أيدي سبا في مذاهبهم الأخلاقية ، بعيداً عـــن تعالـــيم الشريعة الخاتمة . فالأخلاق الكاملة ، والقيم الصحيحة ومعرفة الخير والشر والسعادة ، والشقاء ، والكفر ، والإيمان ، والضلال ، والعلاقات الإنســـانية ، والتكامل النفسي القويم ، كل ذلك يحتم ويقتضي ويستوجب وجود كـــتاب إلهـــي معجز فيه تبيان كل شيء ، أما أن يحاول الإنسان أن يتحسس

طرق الخير والشر وهو لا يدري شيئاً عن خصائص نفسه التي تحركه ، بل إن الذي لا يدري مم يتركب وجوده ولا شخصيته هو أعجز من أن يضع كتابا لهداية غيره لأن الذي يدعي هذه الدعوى العريضة يطلب منه :

أن يحـــيط بكل شيء علما . وأن يحيط بماهية كل شيء ولم وجد ، وعلاقته المتبادلة بينه وبين غيره من الموجودات إحاطة تكشف عن مصير الموجودات فـــي تفاعلهـــا مع نفسها ومع غيرها دنيا وأخرى . فمن ادعى هداية العالمين بأيديولوجية يقدمها لهم إنما هو في الواقع يدعي مرتبة الألوهية ليخضع الناس لسلطانه وحكمه ولا يجرؤ مفكر يملك ذرة من عقل أن يدعي هذه الدعوة لأن مجـــرد دعواه يعزله عن العقلاء ويقذف به في غياهب عوالم الجنون ، ومع ذلك نجد من و سائل الإعلام ما ينشر آراءهم ويرفعهم إلى مصاف الآلهة وهم لا يمثلون سوى إبليس وجنوده .

أيـــن ذهبـــت عقـــول الماديـــين من أصحاب المذاهب والأيديولوجيات الذين يفرضـــون خـــرافاتهم وخزعبلاتهم على الشعوب فرضا إذ يرون أنها الحل النهائـــي لما يعانيه الناس من مشاكل لا نهاية لها . إنهم يزيدون الطين بلة إذ يدفعون إلى طرق الغواية والضلال والهلاك والدماء كل من استرشد بهم من ضـــعاف الـــنفوس والعقول . وعلى أيدي هؤلاء انتشرت اللادينية والشيوعية والفوضى والتبعية والشمولية والإلحاد والإرهاب .

هؤلاء أصحاب العاهات الأيديولوجية يعدون الناس بجنة أرضية إذا هم كفروا بخالقهم . بل عدلوا خطتهم أخيراً فتستروا بالأديان ليصلوا إلى مقاصدهم وهم أول مقـــوِّض للأديـــان . أولى لكم أن تحتفظوا بضلالكم لأنفسكم وتمتعوا به مـــا شئتم . فكل إنسان غني عنكم وله فلسفته في الحياة وهي فلسفة أقوى من فلسفة أي مذهب مادي آخر .

ونعرض فيما يلي صورا لما قررته أشهر المدارس الأخلاقية الغربية :

المدرسة العقلية :

ردت الأخـــلاق إلى العقل فجعلته أصلا للقوانين الخلقية . ويعترض على هذه المدرســـة بأنهـــا إما تستند إلى عقل مجرد لا وجود له : ثم حكمته في الحق والخـــير والشـــر والقيم ، وإما أنها تستند إلى عقلية كل فرد فتصبح الأخلاق نســـبية تخـــتلف باختلاف الأفراد في خير عند هذا هو شر عند غيره وماهو جمـــيل في نظر هذا هو قبيح في نظر غيره . وإذا كانت الأخلاق نسبية فلا وجود لها إذن . ولو سألت العقليين : ما هو العقل ؟ لما فزت بجواب ، فكأنهم يردون الأخلاق إلى مجهول . ومن المذاهب العقلية من احتقر الجانب الحسي فـــي طـــبائع البشر فجعل الحياة صراعا في سبيل آماله ومطالبه ، وهذا قتل لطبيعة الإنسان .

ومـــن أشهر فلاسفة المدرسة العقلية (كانْت) الألماني ١٧٢٤ــ١٨٠٤ مؤسس مذهـــب الواجب وقد أسسه ليتخلص من الأثنينية التي يفرضها العقل النظري والعقل العملي : وقرر أن العقل النظري مشكوك في قدرته في هذا المجال فلا يصـــح أن يكـــون أساساً للأخلاق والعقل العملي هو المصدر الذي تستند إليه الإرادة ومـــنها الخير . ولما كان القيام بالواجب هو أساس كل خير فقد وضع قاعدة عامة تحدد لنا ما هو الواجب وهي :

(اعمـــل بالمبدأ الذي يمكن أن يكون قانونا عاما) ، ووضع لعمل الخير ثلاث قواعد لا يضل من يتبعها وهي :ــ

١- " اعمل على أن تكون الإنسانية في رأيك غاية لنفسها لا وسيلة لغايات أخرى ."

٢- اعمل دائماً حسب المبدأ الذي تستطيع أن تجعله قانوناً عاما لا استثناء فيه .

٣- (اعمل كل ما ترى أن ضميرك هو المشرع له وأن إرادتك تقوم من نفسها بتنفيذه) واجعله[١] قانونا عاما .

" قُتل الإنسان ما أكفره " ! وأي كفر بعد الهروب من دين الله عز وجل ، من الشريعة الخاتمة العامة ، إلى دين يضعه من عنده . ولو قال (كانْت) يجب أن تصدر جميع أفعالك لله عز وجل ، بدلا من أن يقول للواجب لكان أولى له ثم أولـــى ولن تصدر الأفعال خالصة لله عز وجل إلا بالإيمان بما جاء به سيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه ، فبيان الأعمال البشرية ودرجاتها والخير والشر فيها لا يكون إلا عن الشريعة الخاتمـــة .

إن "كانْـــت" يطلـــب : من كل إنسان أن يكون نبيا مرسلا برسالة عامة للبشر لـــيحدد مـــا هو الواجب وليحدد مواطن الخير والشر وليعين المصلحة العامة للإنسانية بأسرها .

وإذا تمشـــينا مع "كانْت" ومدرسته وفروعها لدخل في الواجب ما هو بعيد عن كل واجب ، ولخرج منه كل ما هو من صميمه ! فالإحسان بدافع الشفقة ليس عمـــلا أخلاقـــيا لأن الدافـــع فيه ليس هو الواجب ، وكل سلوك يكون مبعثه العواطف مهما كان نبلها ليس بعمل أخلاقي لأنه لا يصدر عن باعث الواجب!

---

[١] محمد يوسف موسى ــ تاريخ الأخلاق ــ ص ــ ٢٧٣ ــ ط. ثانية ــ ١٩٤٣.

وتحت ستار الواجب بررت الدول الاستعمارية جميع عمليات السطو والنهب والقرصنة واستغلال الشعوب واستعبادها .

وممن نادى بالواجب جويو الفرنسي J.M.Guyan ١٨٥٤ــ١٨٨٨ إذ قرر وجوب التخلي عن الأديان لأنها في نظره تتصيد الثقة لتفرض الإلزام الخلقي، وهذه الطريقة أصبحت في نظره غير مجدية ، وعلى هذا فإن القانون (الذي طالما كان تأثيره في العالم ، واجب أن تؤمن بالله ــ ارتد إلى هذا القانون ــ واجب أن تؤمن بالواجب ــ)[١] ويرى أن الدين لم يصبح ضروريا وأن (الإيمان الأخلاقي يصونه جوهره نفسه) [٢] !

بخ . بخ جاء ليخلص غيره من الوحل فغرق في الطين من أخمصه إلى قمة رأسه . جويو لم يرضه الإيمان بخالقه ، فألغاه ، ليكبل الناس بإيمان وضعه من عندياته ليسعد الناس ! وإني لأتساءل عن هذه الإنسانية التي دفعت جويو إلى الإيمان بالواجب فقط ! أي واجب هذا ؟ لا ندري . لأن جويو صادر بقاعدته هذه مصدر كل واجب ، فمن و اجب الإنسان نحو خالقه تتدفق جميع الواجبات الحقة ، الواجبات الأصيلة وإن إلغاء هذا الواجب إنما هو إلغاء لجميع الحقوق والواجبات . وإذا أردنا أن نصوغ قاعدته في قالب يعبر عن معناها الحقيقي لقلنا إنها (واجب ألا تؤمن بالواجب) ، وهذا على الأقل يفسر لنا سكون جويو ــ المؤمن بالواجب ــ عن فضائح فرنسا ومذابحها في شمال إفريقيا ، إذ كان في ذلك الوقت أستاذا من كبار أساتذة الجامعات الفرنسية ، ولعل فرنسا حين كانت تنكل بالوطنيين في تونس والجزائر ، كان منهمكا في إلقاء محاضراته المزورة عن الواجب .

---

(١) و (٢) جويو : الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء ــ ترجمة : سامي الدروبي ص ٦٥ و ٧١ على التوالي .

المدرسة التجريبية : ويدخل تحتها مذاهب منها :

المذهب النفعي : وأساسه سيكولوجي نفسي ، ويرى أن مصدر الأخلاق هو جهود الفرد في سبيل تحقيق ذاته وخدمة مصالحه ، وهذا المذهب يُسقط الإلزام الخلقي ، لأن الإلزام إنما ينشأ عن تعارض بين المصلحة الذاتية والواجب . ومن فلاسفته [1] بنتام وجون ستيوارت مل.

المذهب التطوري : تأثر بالداروينية ، فاعتبر أن الأخلاق والمثل العليا إن هي إلا مجرد عادات اكتسبها الجنس البشري بالتجربة وعلى ضوء قانون الانتخاب الطبيعي الذي يدفع إلى بقاء الأصلح . وهذا المذهب يسقط المثل الأخلاقية ويقتصر على وصف الواقع ، وهو يناقض نفسه بنفسه حيث يقرر أن الأخلاق الأصلح هي التي تبقى ، والأصوب القول بأن الأخلاق الملائمة للمجتمع هي التي تبقى مراعاة لعدم اللبس : فلو كان المجتمع منحطا كان الذي يلائمه الخلق الوضيع وبالعكس ، ولا يقال إن الأخلاق المنحطة هي الأصلح للمجتمع ، وعلى هذا نبتعد نهائيا عن الأخلاق .

ومن فلاسفته : نيتشه Nietzsche ١٨٤٤ــ١٩٠٠ : الذي تأثر بمذهب التطور الداروينى ، فطبقه على الحياة وعلى الأخلاق : فالخير في نظره هو القوة ــ كما عرفها هو ــ والشر هو الضعف ــ كما عرفه أيضا . وبناء على فلسفته تصح الإشادة بأخلاق السفاحين والمستعمرين والمستبدين والطغاة ، كما يجب احتقار التسامح والرحمة والرأفة والإيثار لأنها لا تصدر إلا عن الضعف ! ولم يدرِ أن العكس هو الصحيح ، فلا أحط ولا أضعف نفسا من الظلمة والسفاحين ، ولا أقوى نفسا من هؤلاء الذين نعتهم بالضعف.

---

[1] أدخل بنتام Bentham ــ ١٧٤٨ــ١٨٣٢ ــ تعديلات رئيسية في مذهب المنفعة كان لها أثر كبير في آراء أتباع هذا المذهب ــ راجع آراءه في كتابه :

An Introduction to the Principles of Morals and Legislation
Hafner Publishing co., No. Y. 1948.

ومنهم هربرت سبنسر الإنجليزي ١٨٢٠ــ١٩٠٣ : ويرى أن الأخلاق ظاهرة بيولوجية ، وهو يدعم علم الأخلاق بعلم الحياة وقوانينه ، وبذا يعمل على هدم الأخلاق بتجريدها من مصادر الإلزام والمسئولية .

المذهب الوضعي : وأساسه انثروبولوجي اجتماعي ، ويقوم على المنهج التجريبي الاستقرائي ، فهو يجعل الأخلاق فرعا من علوم الانثروبولوجيا ــ علم الإنسان ــ ويحمل وظيفة علم الأخلاق دراسة العادات والتقاليد والشرائع كما تتمثل في مجتمع معين في زمان معين ، ومكان معين ، ولا شأن للوضعيين بما ينبغي أن تكون عليه الأخلاق ولا المثل العليا .

ومن فلاسفته : زعيم الفلسفة الوضعية : أوجست كونت ١٧٩٨ــ١٨٥٧ الذي قرر قطع العلاقة بين الأخلاق والدين ، وفي نفس الوقت تبرع هو بوضع دين للإنسانية له نظامه الأخلاقي الوضعي الاستقرائي العملي ! وسار تلميذه لافيت على نهجه .

وممن سار على هذا المنهج من الفلاسفة ــ دوركايم Durkheim ــ ١٨٥٨ــ ١٩١٧ : الذي قرر إبعاد الدين نهائيا عن التربية الخلقية ، ثم تبرع بوضع تشريع أخلاقي مثلث[١] الأركان زواياه :

١- روح الخضوع والنظام .

٢- التعلق بالجماعة الاجتماعية .

٣- استقلال الإرادة .

---

[١] راجع رأيه في كتابه " التربية الأخلاقية ت : د . السيد محمد بدوي .

ولا أدري لمـــاذا ضـــيق علـــى الـــناس فلم يجعله مثمن القاعدة أو لا نهائي الأركان!

وأنكـــر ليفـــي بـــروهل Bruhle ــ ت ١٩٣٩ ــ فـــي كتابه " الأخلاق وعلم العـــادات[١] " وجود أخلاق نظرية وقرر أن الأخلاق إنما تنبع من العادات ، وعلـــى هذا فيجب تأسيس علم العادات على الفن العقلي للسلوك كما يجب أن يعتمد الطب على علم الحياة ، فالأخلاق لا تؤسس ولكنها تكتشف بالملاحظة والتحليل ، وعلى هذا فهو يضع المشكلة الأخلاقية بين حدود يستحيل تحديدها مقدما ، ولا يمكن الاهتداء عن طريقها إلى معرفة الخير الأعلى .

ويعـــترف "بارودي[٢]" بما للمجتمع من أثر في تكوين المبادئ الأخلاقية كما يعـــترف بأثـــر العقـــل في التكوين الخلقي ويضع مقياس الأخلاق الفاضلة : الشخص المتزن المتروي في الحكم . وكلها ألفاظ تحتاج إلى توضيح أكثر مما يحتاجه المشكل الأساسي : فما معنى متزن أو متروي ، أو الأخلاق الفاضلة؟

وهـــناك المذهـــب الأنثروبولوجـــي البحـــت : الذي يرد الأخلاق إلى تاريخ المجتمعات البشرية حتى يصل إلى المجتمعات المعاصرة ولفلاسفته طريقتهم في رد الأخلاق إلى أصول قد لا تمت إلى الأخلاق بأية صلة وبطريقة تعسفية تحقق وجهة نظرهم .

المذهـــب السيكولوجي : ومن أشهر فروعه مذهب التحليل النفسي ، وأشهر رجاله فرويد : ويرى هؤلاء أن النزوع إلى الخير والشر نتيجة تعاليم وأحداث ترســـبت واستقرت في اللاشعور عن طريق الكبت وبذا جردوا الأخلاق من

---

(١) Levy Bruhle, La Morale et La Science des Mours.

(٢) بارودي ــ Parodi ــ المشكلة الأخلاقية .

الغائـــية ومن السمو اللائق بكرامة الإنسان ، إذ أنهم اعتبروا أن الأفعال التي تـــبدو أمامنا مثالية ، إنما هي صادرة عن التسامي برغبات مكبوتة حبيسة لم تتحقق .

المدرســـة الماركســـية : وهي أخطر هذه المدارس إذ تحولت إلى دين مادي اعتنقـــته الشـــعوب المتخلفة ، أسسها كارل ماركس ١٨١٨ــ١٨٨٣ وصديقه انجلـــز ١٨٢٠ــ١٨٩٥ ، وقد وضعا أسساً نظرية شاملة للوجود ترتكز على ثلاث قواعد : ــ

أ/ **المادية الجدلية :** وهي مبنية على أربعة قوانين أساسية :

١- قانون العلاقات المتبادلة والترابط الشامل .

٢- قانون التغير الشامل أو الواقع حركة .

٣- قانون التحول الكمي إلى الكيفي وبالعكس .

٤- قانون صراع الأضداد وهو محرك كل تغير .

وبناء على هذه القوانين توصلت الماركسية مبدئيا إلى :

١- إنكار وجود الخالق .

٢- إنكـــار وجـــود الـــروح ومن ثم البعث والحساب ، وقررت أن الحياة قد وُجدت وجودا ذاتيا .

٣- التفسير المادي للتاريخ .

ب/ التفسير المادي للتاريخ : وإذ أنكرت هذا كله ، قررت أن أسلوب الإنتاج هـــو الذي يكون الصرح الأعلى للمجتمع : من نظم وعادات وتقاليد وأخلاق ودين وتشريع وتقنين الخ ...

وقد أدى هذا الأسلوب إلى قيام الملكية وقيام الطبقات ، واستبداد طبقة الأقوى بكل شيء .

جـــ/ قررت أن المجتمع المثالي هو المجتمع المؤسس على ما سماه ماركس "الاشـــتراكية العلمية" أو الشيوعية ، وهذا لا يتم إلا بتفويض "الصرح الأعلى" المبني على وجود الملكية .

نـــبذت الماركسية التعاليم الخلقية باعتبارها أوامر إلهية أو منسوبة إلى وحي إلهـــي ، وباعتبارها مبنية على الاعتراف بوجود الروح وخلودها ، وفي ذلك يقول الإعلان الشيوعي الذي أصدره ماركس وانجلز سنة ١٨٤٨ : (إن النظام الخلقـــي والديـــن والقـــانون ليست إلا جزءاً من الصرح المزيف الذي أقامته ظـــروف الإنـــتاج ليعكس مصالح الطبقة السائدة). والنظام الخلقي السليم في نظر الماركسية هو النظام الذي يؤدي إلى هدم أي مجتمع غير شيوعي ليتبنى مجتمعا شيوعيا ، وعلى هذا الأساس وضعت الماركسية مقاييس الخير والشر، فكل ما أدى إلى ثورة البروليتاريا فهو خير محض ، و كل ما يؤد إلى ذلك أو يعـــرقله فهو شر مطلق ـــ فالماركسي كالفرويدي (لا يؤمن بالعقائد التي تبدو في نظره دائماً عقائد "تغطية" إنه يعتبرها مجرد أعراض يعتبرها مجرد "نتائج ـــ إشارات" لا على "الليبيدو" بل على مصلحة الطبقة)[1] .

والماركسية تهدم نفسها بنفسها : إذ هي تنكر أساس ا لوجود كما تنكر أساس أية مسئولية أو إلزام بإنكارها وجود الله عز وجل وإنكارها البعث والجزاء ، وإذا كانـــت الصـــروح العليا وليدة مصالح الطبقات السائدة ، فلماذا لا تكون الماركســـية نفســـها كذلـــك . ســـواء في مرحلة الانتقال أو المرحلة النهائية للاشتراكية العلمية وهي الشيوعية الصرفة !.

---

[1] ريمـــون رويـــه ـــ R.Ruyer ـــ فلســـفة القـــيم ـــ تعريب : د. عادل العوا ـــ دمشق ١٩٦٠ ص ١٨٧.

المذهب المادي السلوكي : ويرد تصرفات الكائن الحي إلى مؤثرات معينة ويذهب إلى إنكار أي عنصر غير مادي في تكوين الإنسان وتفسير شخصيته وبواعثه وتصرفاته ، بل والحياة الإنسانية كلها .

وأضاف بافلوف الروسي عدة تعديلات على التفسيرات السلوكية بتقرير نظرية (الفعل المنعكس الشرطي) = Conditioned Reflex Action [٢] .

والسلوكية بذهابها إلى هذه النتيجة تهدم نفسها بنفسها : فإذا كان جميع التفكير يمكن أن يرد على وجه الدقة وبصورة تفصيلية إلى أنه مجموعة استجابات لمجموعة منبهات (فالمذهب السلوكي نفسه لا يعبر عن شيء سوى حالات خاصة تحدث في أجسام أصحاب المذهب أنفسهم ، وكذلك هي الحال في المذاهب النفسانية المعارضة لهذه المذاهب ، فهي إنما تعبر عن الحالات الجسمية لأصحابها ، ولذلك فإن التساؤل عن تلك المذاهب المختلفة أيها هو الصحيح : كالتساؤل عن أحوال ضغط الدم في الباحثين المختلفين وأيها هو الصحيح : فكلا السؤالين لا معنى له ، لأن سلسلة الأسباب التي تنتهي بتقرير هذه النظرية أو تلك ، شأنها شأن أحوال ضغط الدم : إنما هي مجرد وظائف جسمية ليست بذات علاقة بالحقائق الخارجية التي تدعي وصفها . بل تتصل بالخصائص الجسمية التي هي وظيفة من وظائفها[١] .

وهناك اعتبارات أخرى ترد على المذهب المادي السلوكي منها أن عملية الفعل المنعكس الشرطي ذاتها ، ليست عملية آلية ، وإنما هي عملية شعورية

---

(٢) تعرضت السلوكية المادية لهجوم عنيف من كثير من أساتذة مدارس علم النفس والتربية منهم Mc. Dougall في كتابيه : the Battle of Behaviorism (معركة السلوكية) Modern Materialism (المادية الحديثة) . وأثبت أن الدوافع الغرضية تقوض السلوكية المادية من أساسها .

(١) جود : منازع الفكر الحديث : ت عباس فضلي ومراجعة عبدالعزيز البسام ط بغداد ١٩٥٦.

تتدخل فيها المراكز العليا للمجموع العصبي ، ومنها كذلك أن المثير المكتسب إذا تكـــرر عددا من المرات دون أن يصحبه المثير الطبيعي ، فإن قوة المثير المكتسب تضعف وتزول في أغلب الحالات ، فكأن الأفعال المنعكسة الشرطية ليست لها نفس الآلية الموجودة في الأفعال المنعكسة الطبيعية[٢] .

وممـــا يصـــادر المادية السلوكية : أنها تعتمد على مسلمات هي نفسها مثار الجدل والنقاش وأهمها نفي الإرادة عن الكائن الحي وهذا ما لا تسلم به كثير من المدارس الأخرى .

٢- أنها بنت أبحاثها على أساس أن العلم قد نفذ إلى جوهر المادة الحية وغير الحية ، وهذا افتراض لا يسلم به أحد حتى أصحاب المذهب أنفسهم ــ بل إن الفيزياء المعاصرة أصبحت ترفض بملء السخرية أي تفسير مادي للعقل .

٣- أن الســـلوكية المبنـــية على (المادية الجدلية)[١] باطلة من أساسها ، لأنها مبنية على إنكار وجود الخالق والرسالات والروح ، وهذا ما يتنافى مع العلم والعقـــل والوجـــود نفسه ، وإذا كانت مبنية على قواعد باطلة فجميع ما بني عليها فاسد . لذا يقرر "بلارد Ballard" في صحيفة علم النفس العام ــ أكتوبر ١٩٢٩ ــ أن علم النفس قد انتحر على يد السلوكيين وذلك بإهمالهم النفس أو العقل أو الشعور واقتصارهم على مؤثرات جسمية ملموسة وعلى ردود أفعال ملموسة أيضا لا تمثل سوى جانب ضئيل من خصائص النفس البشرية .

---

[٢] عبد العزيز القوصي : أسس علم النفس ــ الكتاب الأول ، طـــ القاهرة صـــ ٩٧ .

[١] Dialectical Materialism وهـــو الدين الجديد الذي خفي على الجامعات الإسلامية في العالم الإسلامي حتى دان به ٢ سكان العالم .

المدرسة الوجودية : تقرر أن الأخلاق تصدر عن تجربة ماضية ، فهي نتيجة الأسلوب الإنساني في الكينونة التي يحياها الإنسان في صميم شعوره ، فالإنسان حقيقة مرنة تخلق نفسها بنفسها ، أو واقعة زمانية قوامها الصيرورة المستمرة .

ويمثلها كير كجورد ١٨١٣ــ١٨٥٥ ــ أبو الفلسفة الوجودية ، الذي يرى أنه لا يهم الموضوع ما دامت علاقات الإنسان موسومة بالصدق ــ فإن الفرد بلا شك يكون على حق ولو كانت علاقاته مجرد علاقة بخطأ أو وهم من الأوهام.

والأخلاق طبقا لفلسفة جبريل مارسل وليدة تجارب ذاتية معينة ومواقف نفسية محددة ، وعند مارتن هيدجر ١٨٨٩ ، هي نتيجة لمفهوم الإنسان لوجوده الخاص به . على أن للإنسان وجودين : وجود حقيقي وهو الوجود الذي تشعر فيه الذات بأنها حرة مسئولة ، ووجود زائف وهو الوجود المتعين مع الغير ، وهذا الغير يستولى على وجود الذات بما يفرضه عليها من أحوال وأوضاع حتى لينتهي الأمر إلى ذوبان الذات في الغير ، فلا تفكر إلا كما يفكر الناس ، ولا تفعل إلا ما يرغبه الناس . وهذا الذوبان هو ما سماه "السقوط" فالسقوط فرض محتم على كل إنسان إذ لا سبيل إلى التخلص من الغير .

ويرى يسبرز الألماني أن الإنسان منحصر بين جدران حدية لا يستطيع منها خلاصا . من هذه المواقف : نوع الإنسان من حيث الجنس : ذكر أم أنثى ــ العصر الذي يعيش فيه ــ الدين الذي نشأ عليه ــ الوطن ــ الأمة التي ينتمي إليها ــ الخ ... على أن الموقف المركزي من هذه المواقف الحدية هو الموت الذي يطبع جميع أفعال الإنسان بطابع نسبي .

والأخـلاق الوجوديـة إما أن تنتهي إلى إغراق في التشاؤم ، والهم والقلق ، والعـدم ، والألـم ، وإمـا أن تنتهي إلى إغراق في الانحلال وتنحو منحى السوفسطائية التي ترى أن طبيعة الإنسان تتمثل في شهواته وأهوائه .

الأخلاق التكنوقراطية :

نَسَـلْت هـذه الأخـلاق مـن اندمـاج الإنسان في الآلة ، فنشأت مجتمعات بيروقراطـية تقنية ، قوامها سلطة الدواوين والمصالح والتقدم الفني التقني . والإنسـان هـنا يُعَـدُ صالحاً كلما اقترب في سلوكه من الآلات في ترتيبها ونظامهـا ، وعلى قدر محاكاته يغدو إنسانا عاملا نافعا نشيطا جديراً بالتقدير وإذا عجـز عـن ذلـك كان فاشلا جديراً بعدم الاحترام . وقد حَمَلَ الكاتب الرومانـي (ك. فيرجيل جيورجيو) حملة شعواء على هذه المجتمعات ضمنها روايـته (عندما تدق الساعة الخامسة والعشرين) فوصف النسل البيروقراطي التقنـي بأنـه نسـل فاسد ، وقد تخلط بينهم وبين الإنسان لأن وجوههم تشبه الإنسان ، لكن سرعان ما يدرك المرء أنهم لا يتصرّفون تصرف البشر: إنهم نسـل لهـم خصائص الآلات ، تدق في صدورهم الساعات لا القلوب ، إنهم شيء غريب يكتسح العالم الآن .

هذه الأخلاق تدركها حينما يصرخ المظلوم فتجيبه الأوراق والاستمارات وهذه الأخلاق تؤمن بالإعلانات الملصقة والأوراق المرفقة ، والحريات المصادرة ، إنها أخلاق تستطيع أن توجد مجتمعا منظما مرتبا كالمصنع ، ولكنه خال من الروح خال من الإنسان .

المدرسة الحدسية :

وتذهب إلى أن الأخلاق ملكة مغروسة في الإنسان بالفطرة ، تمكنه من التمييز بين الخير و الشر ، مجردا عن مصالحه الشخصية و أهوائه الذاتية .

ومـــن مذاهـــبها: مذهب الضمير الحدسي ، ويقول باتصال الضمير بالخالق سبحانه وتعالى ، ولكن كيف يتصل الضمير بالخالق عز وجل ؟ لابد من اتباع شـــريعة جامعـــة تكون مفتاحا لهذا الاتصال ، ومن مذاهبها : مذهب الحاسة الخلقية وقد أسسه شافتسبري (ت ١٧١٣) .

وهـــناك الكماليون المثاليون وعلى رأسهم شيخ فلاسفة أوربا هيجل ١٧٧٠ــ ١٨٣١ ويـــرى أن الأخلاق البروسية هي المثل الأعلى الذي يجب أن يحتذيه الـــناس جمـــيعا ، وقـــد وضع التاريخ على عاتق ألمانيا عبء حمل رسالته الأخلاقـــية والثقافـــية ونشـــرها فـــي العالم أجمع حيث أن شعبها هو الشعب المختار.

ويذهب الفلاسفة المعاصرون إلى التوفيق بين مصالح الفرد والأسرة والمجتمع والوطـــن ويبـــنون الأخـــلاق على هذا الارتباط لتحقيق الكمال المنشود . أي أخلاق ؟ وما هو هذا الكمال المنشود ؟ وما هي مصالح الفرد والجماعة ؟

إن المذهـــب الحدســـي : يـــناقض نفســـه بنفسه حين يرد الإنسان إلى فطرة لا وجـــود لهـــا إذ حلّ محلها صرح دنيوي يتحكم في جميع شئونه صغيرها وكبـــيرها وأصبح الفرد داخل هذا السجن "الباستيل" المحكم يقيس النجاح في الحـــياة بشدة الانتماء إلى هذا الصرح لا إلى الله تعالى فكانت النتيجة خسرانه المبين ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِئكم بالأخسرين أعمالا ــ ١٠٣ ــ الذين ضلَ سَعيهمْ في الحياة الدنيا وهم يحْسَبون أنهم يُحْسِنون صُنْعا ــ ١٠٤** ﴾ سورة الكهف .

الاقتـــداء بالمثل الإنساني الأعلى

هو السبيل العلمي الوحيد لضمان عدم الانحراف في الحياة

إن سر فشل مثل هذه الفلسفات في الوصول إلى حل مشاكل البشر يرجع إلى طبـــيعة المعـــرفة الإنسانية نفسها : فهي معرفة نسبية لا يمكنها الخروج من أبعـــاد الإمكـــان إلـــى مرتبة الوجود الخالق ، لسبب بسيط وهو أن الإنسان مخلوق، وهي مع ذلك قد استبعدت الوحي الإلهي لا لتبتكر طريقاً جديداً وإنما لتحل هي محل الوحي وتقوم بوظيفته مدعية في ذلك أنها تسلك المسلك العلمي الـــذي لا مفـــر منه ، ولو كانت علمية حقا لبنت قواعدها على أساس الوحي الإلهي.

ووقفـــت هـــذه الفلسفات موقفاً يجبرها على صياغة نظرياتها كما لو كانت قد أحاطـــت بالوجود ، بل وإن بعضها قد حدده تحديدا لا مفر معه من الاعتقاد بأنهـــا صـــادرة لا عـــن فلاسفة إنما عن خالق لا يرد كلامه سواء في ذلك الفلسفات المثالية أو المادية . فالفلسفات المثالية قد أوجدت إلها معتقدا حددت أقواله وأفعاله ووجوده بما لا يدع مجالاً للشك في أنه إله مخلوق . والفلسفات الماديـــة إذ أنكرت وجود الخالق ، ادعت أن في وسعها الحلول محله ، وكان لا مفر لها من إسناد الكمالات الإلهية إلى الطبيعة أو غيرها . وقد انعكس هذا الوضع على جميع فروع الفلسفة سواء أكانت مثالية أم مادية .

والواقع أن كل فلسفة ابتعدت عن الوحي القرآني الجامع قد أصبحت في وضع يحتم عليها أن تقوم هي بوظيفة الوحي الإلهي ، مما انتهى إلى تحديد الوجود تحديـــداً يـــتلاءم مع الثقافة التي نبتت فيها هذه الفلسفات ، وسواء رضيت أم رفضـــت فإن كل فلسفة منها إنما تقترب من الحقيقة أو تبتعد عنها بقدر قربها أو بعدهـــا من الحقائق التي قررها الوحي القرآني ، وسواء اعترفت بالوحي السماوي أم أنكرته فإنها جميعا تشترك في سمات تميزها جميعا منها :

١- ابتكار وتصميم عقائد وضعية : إما بتحديد وجود إله معتقد لا يمت بصلة إلـــى الكمالات الإلهية كما قررها الوحي الإلهي ، أو أنها تحدد الوجود دون شعور منها على أساس إسناد الكمالات الإلهية إلى المخلوق .

٢- بـــناء الوجود الإنساني على أساس الوظائف المادية للأعضاء وبذا ينتهي وجود الإنسان كإنسان .

٣- بـــناء الـــنظم الإنســـانية بناء على أحكام الصروح الدنيوية مما أدى إلى الانحراف عن الصراط المستقيم الذي يجب أن يسلكه البشر .

٤- بـــناء القـــيم طـــبقا لـــنظرة نســـبية إلى الحياة مما يؤدي إلى اضطرابها وتناقضها.

إن الـــنظرة البشرية للحياة ذات مدى محدود وهذا باب من أبواب النقص من المستحيل سده ، لأن الذي يبين حقائق الوجود يجب أن يكون غير قابل للتبدل والـــتحول والتغير ، غير خاضع للزمان والمكان ، غير متجزئ ولا منقسم ، غير متحيز ولا منته ، محيط بالوجود الزماني والمكاني ، كامل لا ينقص ولا يـــزيد ، علمه محيط بكل شيء ، قادر ، خالق ... إنه الله خالق كل شيء ... والـــذي يهـــدي العالمين إلى خالقهم ويوضح لهم الصراط المستقيم يجب أن يوحـــي إلـــيه بكـــتاب إلهي فيه تبيان كل شيء ... إن النظرة الشاملة الكاملة للوجـــود والحياة لا تكون إلا عن طريق واحد : هو طريق الشريعة المحمدية الخاتمة لجميع الشرائع .

إن كل مذهب فلسفي يجد نفسه في النهاية أمام هذه المشاكل التي لا يجد لها حلا، يقف أمامه مجردا من كل سلاح أو منطق :

١- مـــا هـــو الخير ؟ ما هو الشر ؟ ما هي السعادة ؟ أين توجد ؟ ما هي الفضيلة ؟ وكيف تعرف ؟ ما هي الرذيلة ؟ ما هي عناصر ومقومات كل من الفضـــيلة والرذيلة ؟ وكيف يتم التحلي بهذه والتخلي عن تلك ؟ ما هو مصدر الإلزام ؟ وكيف تبنى العلاقات السليمة بين الأفراد ؟ وما هي شروط العلاقات

الصـــحيحة ؟ وكـيف يبني المجتمع بحيث يحال دون قيام العلاقات الفاسدة ؟ ماهـــي شروط تكامل المجتمعات ؟ الخ .. الخ .. كل سؤال إنما يوصلنا إلى الرســـالة المحمديـــة الخالدة وجميع المشاكل تحتم الإيمان بالشريعة المحمدية الخاتمـــة لجمـــيع الشـــرائع . إذ لا يمكن أن يعين ويحدد لنا بوضوح الحقيقة النهائية إلا من أحاط بكل شيء علما إلا من علم حقيقة كل شيء ، وارتباطه بغيره ، ومصيره ، إن الشمول الذي يجري وراءه الفلاسفة ، والمشاكل العامة للإنســـانية لا يمكن معرفتها إلا عن طريق كتاب إلهي فيه تفصيل كل شيء . فإلى أين المهرب أيها الناس ! إلى أين تذهبون ؟

ومن يتأمل مجهودات الفلاسفة من الأمم المختلفة ، يتبين له الفارق الهائل بين مـــا هو من عند الله عز وجل وما هو من عنديات البشر . بين القرآن العظيم وبين كلام البشر . إن جميع النظم والعقائد المبنية على الجهل بالكتاب الإلهي العام : بالقرآن العظيم إنما هي نظم ظنية وليست يقينية ، ولا يمكن أن يسعد الإنسان بنظم مبنية على الجهل بحقيقته ، وإن ما نشاهده من تخبط البشر في بديهـيات المعـــرفة والوجود لهو أكبر دليل على افتقارهم المطلق إلى الهدي القرآنـــي الكامل : بل إن المعرفة الوضعية في أرقى صورها قد عجزت عن إدراك البديهيات الأولية التي لابد من الإحاطة بها لبناء أي نظام وتوضيح أي مشكل ، ولا أطرح في هذا الصدد : مشاكل الوجود ، والعقل والروح والذات والشخصـــية لأحظـــى بجواب شاف . فقد يُفْنِي عالم من العلماء جميع عمره الطويـــل فـــي دراســـة النفس ، فإذا ما سألته عن حقيقة النفس لم يجد جوابا. لا أطرح أسئلة معقدة كهذه فالعجز عن الإجابة عليها أمر مفروغ منه بل يكفي ما نشهده من اضطراب العلماء المتخصصين في تعريف الألفاظ التي نحتناها وتداولهـــا العامـــة في حديثهم اليومي ، ولا نستغني عن تحديد معناها لنتجنب اللبس في علاقاتنا وفي تشريعاتنا مثل : الحرية ، الصالح العام ، الديمقراطية، الاشتراكية ، وفي الأخلاق لن نجد اثنين يتفقان على تعريف خلق معين ! كل مـــا فـــي الوجود يعلن افتقار الإنسان الشامل إلى الخالق جل جلاله ، فعندما

يــتعمق الإنسان في أي شيء يجد نفسه وجها لوجه أمام الحقائق التي قررتها الشريعة الخاتمـــة .

فالبشر وقد عجزوا عن الإحاطة بالوجود وتفصيله ومصير الموجودات ، هم أعجــز من أن يضعوا نظاما كونيا شاملا مبنيا على المعرفة الإحاطية . ومع عجـزهم هذا ، لم يبادروا إلى الإيمان بالرسالة العامة للعالمين ، بل أعرض من أعرض ونأى بجانبه وأخذ يفكر لعله يهتدي إلى وضع نظام كوني شامل! أعرضـــوا عن دين الله تعالى ليصنعوا أديان من عندياتهم يسيرون عليها مثل ديـــن العقـــل ، دين التجربة ، دين الحس ، دين الطبيعة ، دين المادة ، دين المادية الجدلية ، دين الحياة ، دين المنفعة ، دين الصدفة ، دين الديموقراطية، دين الحرية ، دين العبقرية ، دين الشك ، دين اللادين ! لقد هربوا من دين الله تعالى فسقطوا في أديان مزيفة باطلة لا ينتهي عددها دون عدد واضعيها .

إن كمالات الخالق سبحانه وتعالى ، وما تقتضيه أسماؤه وصفاته ، وإن حقائق المخلوقات التي تثبت عدم قدرتها على خلق وجودها ، وافتقارها المطلق إلى خالقها ، وإن تركيب الإنسان الذي يقتضي : الخلود ، والثواب ، والعقاب كما يحتم معرفته بخالقه وما يليق بكمالاته ، وآداب معاملته ، وحاجته المطلقة إلى ما يتم به كمال وجوده الدنيوي والأبدي ، وإن تركيب الإنسان الذي يحتم اتباع من أرسله الله تعالى كافة للناس ورحمة للعالمين وأنزل عليه كتابه المبين لكل شيء والمفصل لمراتب الوجود . وهيهات هيهات أن يهتدي إنسان إلى الحق مالم يقتد برسول الله ﷺ الذي فصل ذلك الكتاب الإلهي الجامع ، ودعا الخلق علـــى بصـــيرة مـــن الله ســـبحانه ، وأن كل إنسان يهتم بحماية البشرية من مصـــيرها الرهيب الذي يترقبها ، ويهتم بسعادة البشر وخيرهم جميعا : عليه أن يعمل على جمع البشر على كتاب الله عز وجل وهدايتهم بهدي خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه .